فليكس فارس

بقلم شكر الله الجر

* * *

نثبت في هذا العدد من « الاديب » بعضا من الذكريات اللطيفة عن شعراء المهجر لصديقنا الاستاذ شكر الله الجر الذي عاش ثلاثين سنة ونيف فيعاصمة الاتحاد البرازيلي ريو ده جانيرو انفق معظمها في خدمة الادب والصحافة لا سيما في مجلته « الاندلس الجديدة » التي كانت في عهدها تنقل الينا اروع النفثات لادباء بيئته وقد عاد الشاعر الى وطنه منذ اربع سنوات ليستريح على شاطىء بيبلس، مدينةالحرف والمجذاف، بعدجهود ادبية ووطنية مضنكة .. ولكنه ككل اديب يجد في الادب غذاء لروحه ما برح ينفحنا بخواطره الذكية وذكرياته الحميمة عن رفاق غربته من زملائه الشعراء مخصا منهم من غادر الحياة بفصول شيقة تطلعنا على الكثير من شؤونهم وشجونهم مما لم يتوفر لنا الاطلاع عليه قبل اليوم .

وفي المقال التالي لمحات عن فقيد الادب والمنابر فليكس فارس الذي عاش مشردا عن لبنان زهاء خمس عشرة سنة ثم قضى نحبه في مدينة الاسكندرية ، وفي ذيل المقال القصيدة التي رثاه بها الشاعر لما نعي اليه وهو في البرازيل .

* * *

كان في عهده اميرا من امراء الكلمة في هذا الشرق اشرأبت اليه الاعناق خطيبا على منابر الارز شمخت به راية البلاغة وصفقت في يديه . اطلقها صرخة مدوية يوم نفت حكومة عبد الحميد ولي الدين يكن الى سيواس فاهتزت لصرخته اعمدة يلدز وترددت بين جبال الدردنيل رعودا وبروقا .

ما وقف على منبر الا سحر السامعين بفصاحته وقوة حجته . تميز بعبارته الموسيقية وبشكله الجذاب. طويل القامة ابيض البشرة اسود العينين والشاربين .

سمعته متكلما للمرة الاولى في بيروت عام ١٩٢١ وذلك عندما قدم الشاعر البغدادي معروف الرصافي الى لبنان غاضبا ناقما على وضع الحكم في بلاده فاستقبلته نوادي الادب بالترحاب وبواته الماسونية مركز الصدارة في محافلها . فاذا نحن في محفل السلام امام الرصافي يقدمه فليكس فارس الىالجمهور ببيانه الخلاب فغرب وشرق في خطبته مشيرا الى مكانة الادب والاديب في الامم الراقية فأدهش السامعين . فقال الناس لله دره من خطيب . وقلت في نفسي لله دره من شاعر في خطيب .. وما زلت اذكر من قصيدة الرصافي في تلك الليلةوعنوانها «المهجورة» ابياتا يصور فيها احدىالحسان وقد هجرها زوجها فراح الشاعر يسألها عن البواعث التي ادت الى هجرها فأجابته :

فيا لك من حـــر يسأل جـــرة   شكت هجربعل لم يكن بالفتى الحر

ويلاحظ القارىء الكريم ان كلمة حـر وحرة ترددت مرارا ثلاث في البيت الواحد فجاءت سائغة لذيذة .

ثم راح يتغزل بمسحة الكآبة التـي تحلي جبينها فتزيدها جمالا :

كـأن تلاميـح الاسـى في جبينها   بقايـا ظـلام الليل في غرة الفجر

وهذه البقايا في غرة الليل ـ لمن اروع ما ورد في قصيدة الرصافي تلك الليلة .

ومما ضاعف من وقع القصيدة في النفوس هـو شخصية الشاعر الجليلة وعباءته الفضفاضة ، وهراوته الغليظة تتحرك في يده مع نبرات شعره وطربوشه الاحمر الطويل وقد لاصق اذنيه ولهجته العراقية الى نكهة بدوية صحراوية في صوته المخشوشن .

وبعد أن تعبت الاكف من التصفيق للرصافي اطل على الجمهور من بعده الياس ابو شبكة واديب مظهر بقصيدتين رائعتين ما يزال عالقا في ذهني من قصيدة الاديب بيتان يصف فيهما ذلك الشلال المتدفق على صخور وادي قاديشا الرهيب وقد اودعهما صورة من خياله الطريف المهفهف قال :

وهناك في الوادي غدير تائـه   متلفت بـين الصخـور نفـور
يهفو الصباح فيستحم بمائـه   وينام فوق ضفافـه الديجور

كان فليكس رحمه الله لمعة في سماء الادب ، وبارقة من بوارق العبقرية ظلت الغمائم ترين عليها حتى اخفتها، وبلبلا مفقوء العين ظل يسكب من اغاريده في القلوب حتى ادركته الزوبعة فأخرسته .. ولله تلك الاغاريد ما كان اعذبها واشجاها انها حملت كل شجون الشرق وانينه ، وكل تنهدات المرأة الشرقية على شاطىء المتوسط من عهد ايزيس وعشتروت الى عهد مريم ام يسوع الى ثكالى الحرب الكبرى ..

ما عرفت بعد ولي الدين يكن شهيدا مثل فليكس احسن الى الادب فأساء الادب اليه . ولا رأيت بين امراء القلم من تنكر له الحظ وعبس الزمان في وجهه مثل هذين الاديبين فليكس وولي الدين وكلاهما كانا من كبار الاحرار . لفهما الدهر في رداء واحد . فلا السياسة اخلصت لهما ، ولا الادب وفاهما سهر الليالي .

لقد شهد الناس على العهد العثماني كيف كان فليكس « ميرابو » الاتحاديين ، يقف على منبر الشعب عشرات المرار بين مشرق الشمس وغروبها ، تتدفق البلاغة من فيه والاخلاص من عينيه ثم عرف الناس بعد ذلك ما كان جزاؤه (١) . ولكن فليكس ما كان للسياسة وللادب فحسب بل كان للامة وللوطن ، ولما كان جبران

يهدم بمعول « الاجنحة المتكسرة » باستيل التقاليد ، كان فليكس في كتابه « النجوى الى نساء سوريا » يصيح صياح الديك داعيا المرأة العربية الى اليقظة .

وفي نهاية الحرب الكبرى بعد ان سكبت عيناه اخر قطرة من الدموع فوق قبور شهداء الوطن ، حمل بين يديه جراحات لبنان الى ما وراء البحار ، الى اميركا الشمالية ، يكشف عنها النقاب كما كشف ماركوس انطونيو الغلائل عن جثمان قيصر .. وظل عامين كاملين في ذلك المهجر النائي يتنقل من منبر الى منبر مهيبا باخوانه المغتربين بأن يتدبروا امر الوطن وهم دون سواهم مناط رجائه وقبلة اماله . وكان له من جبران في غربته تلك اخا واي اخ لطف نواحه وضمد جراحه . اما لبنان فلم يأبه له .. فاذا هو بعد قليل شريد اليأس طريد التهم تخفق نعلاه في رمال الاسكندرية يناشد من النيل وشلة يبل بها ظمأه ولكن هيهات . لقد عاش ثلثي حياته غريبا عن وطنه حتى غربت شمسه وانطفأ قمره .

كتب الي مرة وهو في الاسكندرية يقول « ان كلينا مغترب عن لبنان يا اخي اسمع تنهداتك من بعيد واقرأ دموع الحنين في شعرك وقد عصر الشوق فؤادك ، فلله وطن يعق بنيه ويتنكر لمحبيه . اما نحن وامثالنا من العاملين على تخليده والناشرين على مناكب بيارق عزه فمرجعنا الى الله .. »

نظم فليكس الشعر فأجاد وابدع والقليل الذي تركه لنا من شعره يدلك على صدق الموهبة الشعرية التي تغلف كيانه وتبرز لك نواحي تفكيره ولنا مما ترجم والف شاهد على تلك النغمة الموسيقية التي ترافق بيانه وتمتزج حتى بعبارته الخطابية فتنساب مهلهلة شفافة الاداء . ومن قرأ النجوى اول كتاب اصدره ثم قرأ بعده فتى العصر مترجما عن شاعر فرنسا دي موسه ثم رسالة المنبر ــ ثم ترجمته لفردريك نيتشه ــ عرف اي قلم كان قلم فليكس فارس جمع بين لغة الكاتب والخطيب والشاعر .

ويسرني ان انقل الى القارىء الكريم بعضا من شعره لا سيما قصيدته الرائعة في رثاء صديقه اديب مصر الكبير مصطفى صادق الرافعي وقد بعث بها خصيصا الى مجتلي « الاندلس الجديدة » يوم كنت في البرازيل وكان هو في الاسكندرية مع رسم يمثله الى جانب الفقيد وفي القصيدة من غنة الاسى ونبرة الفيلسوف المفكر ما يجتذب الخاطر ويهز المشاعر قال :

تواريت في الملأ الارفع … فانت هناك وانت معي
هتكت عن الروح ستر التراب … وستر ترابي لم يقشع
اماط القضا احد البرقعين … وما زلت إدرج في برقعي
فاصبحت أقرب مني الى … قرارة نفسي في اضلعي

الى ان يقول :

فقدناك يا مصطفى صورة … لجيل باصلابنا مودع
لجيل سيعرف انسابه … فينكر كل دخيل دعي
اذا نازعته الدنى روحه … يهب بهوجائه الزعزع
يثور وفي قلبه ربه … فيمشي على السيف والمدفع
عرفناك يا مصطفى جامعا … شتيت بني العرب الاربع
غنمت من الارض أرواحها … وعفت التهاويل للمدعي
اذا الروح نالت معاني الوجود … تخلت عن الحرف والمقطع
سلام على غائب حاضر … تكفكف ذكراه من ادمعي

ومن شعره ايضا :

ضحكت على الدنيا لعلمي بمكرها … وقد ساءها أني أسيء بها ظني
وأوليتها ظهري وعشت كمدمن … على ثغره كاس وكاس على الدن
ولكنني لما التفت رأيتها … وقد لف رأسي الشيب ضاحكة مني

والان من اقصى اماني يا فليكس وانا اليوم في لبنان ان احج الى مثواك وان احمل اليك هذه اللوحة من شعري والقي بها على ضريحك ، وفيها كل شجوي عليك وكل مرارة نفسي ونفسك من الايام لتبقى تاريخاً لحياتك في كبوة من كبوات الدهر وصورة عن بني قومك ومدى اعزازهم للادب والادباء مما يجفل منه ألفد وتخجل من تدوينه الاقلام ..

غرست لقومك ورد المنى … فكان حصادك شوك الندم
فليكس اذا ما بكتك العيون … بدمع بكتك عيوني بدم
أيجمعني فيك حظ الاديب … الشقي على وفرة في الشمم
ولا استعير بيانك فيك … ولا استعير لجفني الديم
واستصرخ الشرق حزنا عليك … واذعر تحت التراب الرمم
لقد عشت في غمرة من همومك … جم المصائب جم النقم
وذنبك انك ابن البيان … وابن البيان كثير الالم
تهب عليك الخطوب الضخام … فتلقاك للصبر طودا أشم
ويستهدف الجبل المشمخر … لصخب العواصف دون الاكم
تعامت بلبنان عنك العيون … وأذن الشآم عراها الصمم
فيممت وجهك صحراء مصر … وملء الفضاء غيوم وغم
تلفك لف الرمال الهموم … ويحدوك في السير يأس أصم
فصفق حول الصفاف النخيل … وهش ورحب فيك الهرم
وكم رحب النيل بالملهمين … ووطأ اكنافه للقمم
فواخجل المجد ان ندعي … بانا منار الهدى في الامم
وانا نشرنا على الخافقين … لواء التمدن منذ القدم
وانا نعظم اهل النبوغ … وانا نكرم اهل الذمم ؟!
ونغمط مثلك حق الجهاد … وكم حسد العرب فيك العجم
فعفوك عنا فما نحن الا … صغار النفوس صغار الهمم
اذا مرد العبقري البناء … عملنا على هدمه فانهدم
فيا امة ترجم الانبياء … لجهل ويعبد فيها الصنم
لك الله من امة تزدرى … بها العبقريات او تتهم
ايحرم فيك الكرام الكفاف … وتغرق فيك اللئام النعم ؟
ويقضي بن فارس عنك شريدا … طعين الفؤاد طريد التهم
فلم لا تزلزل زلزالها … الجبال ، ولم لا يثور الخضم
تعشقت نجواك منذ الصبا (٢) … ورضت عليها النهى والقلم
وألفيت فيك رسول الجديد … الى امة اوغلت في الهرم
فكنت المربي لنشء اطل … قصيص الجناح سخيف القدم
فتحت لنا مسبحا في النجوم … واطلقتنا شعلا في الظلم
فنم في ثراك قرير العيون … ودعنا وراءك نحمي العلم

جبيل ــ لبنان

شكر الله الجر

---

(١) ابعدت السلطة الفرنسية فليكس الى حلب ولما ضاقت به حكومة صبحي بركات صديق فرنسا وضاق بها شد رحاله الى مدينة الاسكندرية وبقي فيها حتى وافاه اجله حيث نقل جثمانه الى بلدته الريحات ودفن فيها . (٢) نجواك يعني كتاب النجوى الى نساء سوريا .

صخرة الخليج

☆

خبئيني في الدفء ، يا اخت، فالبرد   صقيع ، والريح تعصف عصفـا
والاصم ، الظلام ، يشتد من حولي   ويطفو ، والثلج ينسف نسفـا
وجناحي مضعضع ، واماني عطاش   يهتفـن بالشـوق هتفـا
وشفاهي كانهن من النشوة ، والحلم ، ودن صاف، وآخـر اصفـى
وليـال ممزقـات علـى الـدرب   رصفن الاوهـام في العمر رصفـا
مسحة الظن في اليقين ، فيا نعم   يقينـا رشفتـه منـك رشفـا
والقليل ، الاقـل من ورق الـورد   ربيع ، يعيـا على النفس وصفـا

خبيئني، اخاف، يا اخت، فيالليل   خيالا يمـر في الذهن خطفـا
هاربا من مخابىء الامس لا يعلـم فـي اي نجـوة يتخفـى

انت لي صخرة الخليج الـى الفجر   وحرفـي ، اذا روى البحـر حرفا
ضمة، ان ضممت ، اخصبت الارض   حنـوا فـي ساعـدي وعطفـا
يكبر الحب فوق ما تكبر النفس   ويصحـو علـى العطـاء ويغفـى
مطمئنا كانـه النغمـة الغنـاء   تهفو هفـوا وتعـزف عزفـا
غنـة اثـر غنـة ، وحنيـن   كحنين الغريب لينـا وعنفـا

اخت ، ملت نفسي انتظـارك حتى   جفت النفس عنضميري .. فاجفى
صرت كالليل قطعة مـن طيـوف   هائمـات ، رفـا يعانـق رفـا
وسموا هـو السمـو ، وانفاسـا   هيولى ، ترنـح الـذات رهفـا
ضاع قلبي بـين التضرع واللقيـا   وضاعت .. وحرت .. منأين تشفى
يرتوي اللحن دون ان يرتوي السمع   وتبقى الرؤيـا مطافـا ولهفـا

اخت، مالي والبرد؟! كفكلي حصني   فهاتـي هاتـي ، مـن البـرد كفا
تعكف النفس حول بيتك ، يا اخت   مجوسا تزمزم الليـل عكفـا
قدست نارك القوية في ضعفـي   كانـي ضعف يعـارك ضعفـا
وتاملت ... فانتهيت الـى الايمان   بابا ، عالي القبـاب ، وسقفـا

الياس خليل زخريا

السرديون

بقلم حسن الكرمي
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

« السرديون » كلمة اطلقتها على طائفة من المتعلمين ، او طبقة من الناس عموما ، وقصدت بها ان اظهر ناحية من تفكير هذه الطائفة او الطبقة في الامور الدنيوية المهمة وغير المهمة . وقد لمحت في هذه الكلمة المعنى الموجود في الفعل (سرد) في قولنا : سرد الحكاية ، او سرد الممثل دوره في الرواية ، بمعنى انه ذكر الحكاية مسلسلة، او ذكر الدور وقاله مسلسلا ، بحسب السماع او النص بدون ن يكون له دخل او تعديل في ذلك ، او بدون تفكير او تمحيص . والقارىء ، ولا شك ، خابر لمثل هؤلاء الاشخاص ، وخصوصا بين النساء والاطفال . ويجد الانسان منهم امثلة عديدة بين جميع الطبقات تقريبا ، لا فرق في ذلك بين متعلم وغير متعلم . وكنت اعرف من هؤلاء جماعة او افرادا يتخصصون بسرد الحكايات والشائعات ويتنقلون بها من مجلس الى مجلس، وهذا الطراز من الناس معروف لدينا في البلاد العربية، ومعروف ايضا في بلاد اخرى ، مهما بلغت من التمدن والرقي . واظن ان الحلاقين في جميع العالم هم خير مثال على طبقة « السرديين » .

ولست اقصر هذه الكلمة في معناها على اهل الكلام وحدهم، وان كنت اخصهم بالمعنى اكثر من غيرهم ، بل اريد بها ايضا الكتاب والاساتذة والمعلمين واصحاب الصناعات والعمال وسواهم . فان الاستاذ الذي يعلم درسه كأنه يقرأ من كتاب او يحفظه عن ظهر قلب ، والكاتب الذي يسرد كلامه كما يسرد (الحكواتي) حكايته، والصانع الذي يعمل بيديه على اسلوب معين لا يتخطاه – هؤلاء جميعهم « سرديون » . وان يكون الانسان سرديا ليس معناه ان يكون دون غيره في المقام في الميزان الاجتماعي ، لان « السردية » طبيعة في بعض الناس ، ولا يملك هؤلاء الناس ان يتخلصوا منها . بيد ان « السردية » داء من ادواء الفكر تجب محاربتها ، وخصوصا في جماعة المتعلمين ، لانها اشارة صادقة على ضعف عقلي وقصور فكري . ولعل القارىء الكريم يدرك معنى ما اقول اذا تذكر ان شخصا من جملة معارفه يشبع السامعين اخبارا واقوالا عن فلان وفلان وعن الجريدة الفلانية والفلانية وعن الدولة الفلانية والفلانية يسردها سردا بكل تفاصيلها ، بدون ان يبدي هو براي او يأتي بتعليل . وابداء الرأي او اعطاء التعليل شيء اخر يختلف تماما عن عملية السرد هذه ، لانه يحتاج الى تفكير . ولا بد ان يكون احدنا قد خبر في ايام دراسته معلمين كانوا يلقون على الطلاب دروسهم كالببغاء ، ليس بينهم وبين الدرس صلة وثيقة ، وذلك لان الاصل في الدرس غير مفهوم . واذكر ان احد معلمي اللغة العربية طلب اليه ان يعلم الرياضيات في صف عال ، ولم يكن بينه وبين الرياضيات حسن تفاهم . فكان اذا صور الشكل على اللوح يصوره صغيرا كما هو في الكتاب خوفا من ان يختلط عليه الامر اذا كبره ، وكان يضع الحروف على الشكل مرتبة بحسب الكتاب حتى لا يخرج عن السلسلة في تقرير المطلوب . كان هذا المعلم يشرح الدرس ويقرر المطلوب بحسب الكتاب تماما . وقد ادرك الطلاب منه هذا الضعف فكانوا يغافلونه ويغيرون مواضع الاحرف على الشكل. وهنا « وقف حمار الشيخ » كما يقولون ، واختلط على المعلم الامر ، ولم يعد يدري ماذا يقول . واذكر معلما اخر كان لا يسمح للطلاب بمقاطعته بسؤال او استفهام ، لان ذلك كان يقطع عليه تسلسل الكلام المحفوظ .

ولا ينحصر ضرر هؤلاء الناس في هذه الناحية فحسب ، بل يتعداه الى ناحية مهمة اخرى . فان اعتياد هؤلاء على الحفظ بدلا من الفهم ، واعتمادهم على السرد دون الفحص والتمحيص ، وميلهم الى سلوك اهون المسالك – هذه تجعلهم ضعافا امام غيرهم ، لا يقوون على مقاومة الاراء او الافكار المدسوسة عليهم كالدعايات والتخرصات والتدليسات . وقد رأيت ان كثيرين من المتعلمين بين العرب يحملون افكارا وآراء تلقفوها تلقفا فآمنوا بها واعتنقوها دون ان يفهموها او يفهموا ما وراءها من القصد . ثم ان هذه الطبقة السردية من الناس ، بحكم التركيب العقلي عندها ، تأخذ دائما بالظاهر ، لا ينفذ بصرها الى ما هو ابعد من ذلك . فهي تهتم بالقشور وتترك الجوهر ، وتتعلق بتوافه الامور وتهمل الاسس والعوامل المهمة . فاذا واجه البلاد مشكلة من المشكلات كان هؤلاء السرديون اضعف عقليا من ان يتفهموا هذه المشكلة على حقيقتها ويتوصلوا الى علاجها . وقد يشتغلون بالسفاسف دون الجوهر ، وبذلك يمكنون عدوهم من التغلب عليهم . ولدينا في الشرق الاوسط امثلة عديدة على ذلك ، قديمة وحديثة .

ولعل مثالا او مثالين يكفيان للدلالة على ما قلته عن قشور القضية ولبابها وعن ان السرديين يعجزون عن الوصول الى كنه المشكلة ومبدئها الاول . لنأخذ مثلا الحكاية المشهورة عن العالم البريطاني « نيوتن » . فان هذا العالم رأى تفاحة تسقط من الشجرة الى الارض . فماذا كان تعليل ذلك عنده ؟ لو كان « نيوتن » سرديا لقال ان التفاحة سقطت الى الارض لان الخيط الذي كان يربطها بالتفاحة قد انقطع ولذلك فان التفاحة انفصلت عن

الشجرة وسقطت . ولكن « نيوتن » لم يكن سرديا ولم يكتف بهذا التعليل الظاهري ، بل تخطاه الى تعليل عميق جوهري ، وتوصل بذلك الى نظرية الجاذبية الارضية والجاذبية الكونية ، وامكن بواسطة هذه النظرية الفذة تعليل هذا النظام الكوني القائم بين الكواكب والنجوم . وثمة حكاية مشابهة اخرى وهي أن احدهم رأى مرة غطاء القدر يرتفع وتخرج عند ارتفاعه دفعات من البخار . ففكر في ذلك ، وسرعان ما توصل الى نظرية ضغط البخار التي طبقت بعد ذلك بقليل في القطارات البخارية وغيرها. ولو كان هذا المخترع سرديا لاكتفى بقوله بان غطاء القدر يرتفع لان البخار يخرج من القدر وليس له مخرج غيره.

فالمسألة اذا تتلخص في القدرة على النفاذ الى لب القضية وعدم الاحتفال ببعض المظاهر المشوشة للذهن. وهذا بالطبع يحتاج الى قدرة على التجريد المعنوي والسمو بالفكر عن العوامل غير الجوهرية . والتفكير العلمي مبني على ذلك. والمفكر العالم يعرف كيف يختار من بين العوامل التي بين يديه تلك العوامل الجوهرية التي تؤدي به الى تعليل الظواهر الطبيعية ووضع نظرية او نظريات علمية مناسبة. وليس كل من يجمع المعلومات يستطيع ان يعللها او يختار منها المعلومات الجوهرية . ولذلك فان في دور البحث والتنقيب اناسا يتخصصون بجمع المعلومات واناسا اخرين يعللون هذه المعلومات. والجماعون من هؤلاء هم السرديون. وقد وجدت ان من الذين تدربوا على البحث العلمي افرادا لم يستفيدوا من هذا التدريب الا حشد المعلومات وصفها بدون تمييز . فهم ما يزالون سرديين حتى بعد تدريبهم . ويظهر لي ان الخروج من نطاق السردية أمر يتطلب بعض الصفات العقلية .

وقد نضطر احيانا الى ان نكون سرديين لاسباب مختلفة . فالواحد منا قد يحتاج الى تعلم سياقة السيارة. فهو لضيق الوقت لا يهتم الا بحفظ بعض القواعد والحركات ، حتى اذا اتقنها أصبح سواقا ، بدون الحاجة الى معرفة الاسرار الميكانيكية للسيارة . وقد يجد احدنا نفسه في بلد لا يعرف لغتها ، فهو يتعلم عبارات هذه اللغة بصورة ميكانيكية بدون التعمق في دراسة صرفها ونحوها وقواعدها اللغوية واشتقاقاتها وما الى ذلك . وموقفنا في الشرق العربي من المدنية الغربية شبيه بموقف احد هذين الشخصين . فنحن مضطرون الى الاخذ بهذه المدنية رضينا ام ابينا ، ولذلك فأننا نأخذ منها كل شيء بدون ان نتوقف قليلا حتى نهضم ما اخذناه . وهمنا الوحيد هو ان نحيط بأكبر قسم منها ، وان كانت هذه الاحاطة سطحية لا تتعدى الظواهر . فنحن في اقبالنا على المدنية الغربية سرديون .

في هذه الحالة نحن مضطرون الى ان نكون سرديين، ولنا في ذلك عذر ، لان تيار المدنية الغربية تيار جارف لا يمهل الانسان حتى يستعد له ويعرف اسراره حتى يتحكم به . وقد حاول بعضهم التمسك بالقديم ، والاخذ بطرف من المدنية الغربية دون اخر ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل . ومن اكبر الامثلة على ذلك اقبال اليابان على المدنية الغربية دون تحرج . وقد اختلف الروس فيما بينهم قبيل الثورة الروسية هل يأخذون بالمدنية الغربية ام يحتفظون بمدنيتهم السلافية . اما الامم الافريقية الناشئة فهي تقبل على المدنية الغربية بلا تحفظ لانها لم يكن لها مدنية سابقة تحتفظ بها . هذه الامم الافريقية جميعها سردية . وقد تمر الامة الواحدة بدور ابداعي ودور سردي في تاريخها ، كما جرى مع الامة العربية . فقد مرت هذه الامة بالدور الابداعي في اوائل عهدها في الشرق والغرب ثم مرت بالدور السردي في اواخر عهدها حينما انصرف الناس عن الخلق والابداع والبحث والابتكار وانغمسوا في التصنيف والتبويب وتنميق العبارات واجترار الافكار . ويظهر من هذا ان ظروف المعيشة في الامة هي التي تكيف هذه الامة وتجعلها مبدعة مبتكرة او تجعلها خاملة سردية . وفي العالم العربي في الوقت الحاضر غمرة سردية ، ولا يدري المرء كيف يمكن الخروج من هذه الغمرة حتى تعرف الاجيال الحاضرة موقفها في الحال وفي المستقبل من مشكلات محلية وعالمية . ويبدو لي ان افضل شيء للامة في محنتها السردية ان يكون لها ايمان أو فلسفة ، فاذا كان الحصول على الايمان صعبا وكان غرسه في النفوس متعذرا فأفضل ما يلجأ اليه الانسان فلسفة تبنى على الواقع . ويرى بعضهم ان التعليم في المدارس قد يكفل هذه النتيجة ، ولكن هذا التعليم في رأيي يجب أن يكون من نوع خاص ، واقصد بذلك ان يكون على الإساس العلمي . وهذا يتطلب تغييرا جذريا في البرامج ونظم التعليم في مدارس البلاد العربية . وبحث هذا يطول .

ولنعد الان الى اوائل الكلام عن السرديين . وأذكر في هذه المناسبة عبارة انكليزية توافق المقام ، وهي قولهم عند الكلام عن شخص ما : «هو لا يرى الحرش لوجود الاشجار» ويريدون بذلك ان هذا الشخص لشدة اهتمامه بالتفاصيل والجزئيات لا يرى الجملة ولا الكليات . اي ان هذا الشخص لا يستطيع ان ينتزع من التفاصيل فكرة عامة او ان يجرد من الجزئيات كلية شاملة . وهو في هذا المعنى خير مثال على الشخص السردي الذي وصفناه آنفا . ومن صفاته ايضا انه لا يرى ترابطا بين التفاصيل ولا يجمع بين الجزئيات بفكرة جامعة ، فهو بذلك اعدى من يكون على العلم والتقدم العلمي . ونظرته هذه المحصورة تصور لنا حوادث العالم بانها حوادث متفككة لا ترابط بينها وان العالم عبارة عن اختلاط وتشويش وفوضى . فهو لا يرى الا اشجارا متفرقة ولا يستطيع في ذهنه ان يجرد منها صورة اخرى وهي صورة الحرش . وامثال هذا الشخص في الحياة العامة كثيرون ، يوجدون في كل مكان وفي

كل طبقة ، وقد يكثر وجودهم بين من نسميهم بالادباء او المتأدبين . وقد يرى الواحد منا هذا الاديب او المتأدب يحتكر المجلس ويشبع السامعين حكايات واخبارا لا محصل لها ولا تؤدي الى فكرة مفيدة او تعليل نافع .

وقد نعكس الوضع فنقول عن شخص ما انه «لا يرى الاشجار لوجود الحرش» ، ونعني بذلك ان هذا الشخص تستحوذ عليه فكرة معينة بحيث انها تمنعه من ان يرى الحقائق والوقائع المنافية ، ولا تريه الا الحقائق والوقائع التي هو يريدها ، لانه لا يؤمن الا بما يروق له ولا يحمل من الاخبار والاقوال الا ما وافق الهوى . وقد قاسى العالم طويلا من هذا التعصب الفكري ، والحرب الباردة في الوقت الحاضر تقوم على امثال هذا الشخص . ويحكى ان احد الفلكيين الذين كانوا يؤمنون بالنظريات القديمة رفض ان يؤمن بوجود اقمار حول احدى السيارات ، وقال انه حتى لو رأى هذه الاقمار بعينه فانه لا يصدق ، والغريب ان العلماء هم من اكثر الناس تعصبا ضد الافكار الجديدة ، كما جرى مع « باستور » الفرنسي » و « كوخ » الالماني وغيرهما . وحكاية المثل القائل : « عنزة ولو طارت » اكبر شاهد على هذا النوع من التفكير .

هذا الشخص مع الشخص السردي يمثلان اسلوبين في التفكير :

الاول: صرف الذهن الى الجزئيات وعدم الوصول الى الكليات ، كالذي يرى الاشجار بمفردها دون ان يهتدي الى وجود الحرش . والثاني : الخضوع لفكرة معينة بدون استعداد لتغيير هذه الفكرة متى قامت الشواهد على بطلانها . والاسلوبان من نوع واحد في النهاية ، لانهما يتفقان في اخطاء الحقيقة . والاول يخطىء الحقيقة لعدم مقدرته على استخراج الافكار العامة ووضع النظريات التفسيرية . والثاني يخطىء الحقيقة لوجود حاجز في الذهن يمنع وصول الافكار الجديدة التي قد تؤدي الى ازالة ذلك الحاجز . وقد كان الاسلوب الثاني ولا يزال من أعظم الاسباب في خلق حالات التوتر في العالم وفي احداث الحروب والفتن ، مما ادى الى سفك الدماء والمجازر البشرية وتخريب البلاد والديار في جميع العصور . وكان يرجى من انتشار العلم واتساع تأثيره ان يقلع الكثيرون في العالم عن طريقة التعصب في الافكار . ولكن انتشار العلم انما امد اصحاب هذه الطريقة التعصبية بوسائل جديدة ووسائط حديثة لتقوية هذا التعصب وتثبيت أركانه . ويكفي من هذه الوسائط والوسائل ان نذكر أجهزة الاعلام كالصحف والمجلات والراديو والتلفزيون والسينما وغيرها . يضاف الى ذلك ان العلم الحديث أصبح معقدا غاية التعقيد فلا يفهمه الا نفر قليل . ولذلك يسهل على المتعصبين ان يبينوا صدق افكارهم عن طريق معلومات علمية قد تكون مصنوعة ولا يعرف الرجل العادي مبلغها من الصحة فهو يؤمن بها لانه لا يستطيع ان يكذبها .

وليس لهذا من علاج الا العلاج العلمي ، وهو ان يحجم الانسان عن تصديق فكرة ما لم يثبت لديه صدقها ، او ان يتخذ موقف المتفرج من الاوضاع الفكرية المختلفة ، فلا يتعصب لواحد منها وهو يعلم انه عاجز عن اثبات صحتها. وان هو اعتنق فكرة معينة بعد شيء من التمحيص فيجب عليه ان يقلع عنها حالما يتبين له بطلانها. هذه هي الطريقة العلمية . والعلماء اليوم لا يكادون يجزمون جزما قاطعا بأية نظرية ، لان هذه النظرية عرضة على الدوام للتغيير والتبديل بحسب ما يكشف عنه النقاب من حقائق ومعلومات جديدة . ولا أقول ان اتباع الطريقة العلمية في التفكير من يوم الى يوم امر سهل يستطيعه اكثر الناس ، لان هذا الاتباع يتطلب استعدادا طبيعيا اولا وتدريبا علميا ثانيا . والاستعداد الطبيعي ليس لنا حكم عليه ، ولكننا نستطيع الاستفادة من هذا الاستعداد اذا ربيناه ونميناه بالتعليم والتدريب . ولا سيما في المدارس . والغاية من كل ذلك غرس الميل الفكري الى التمحيص والانتقاد حتى لا يقبل الانسان فكرة معينة بدون نقدها وتمحيصها . وقد يبلغ بالمرء الناقد ان يكون على حذر من كلّ شيء يكتب او يقال . والنظريات الفلسفية الجديدة عن التعابير اللغوية تحضنا على فحص كل كلمة نقولها ، لان هذه الكلمة قد تنطوي على مخادعة فكرية . واذكر في هذه المناسبة مثلا ان اصحاب هذه النظريات الفلسفية اللغوية يقولون ان الانسان قد يظن انه اذا استعمل كلمة ما فان هذه الكلمة اسم لمسمى موجود فعلا ، واطلقوا على هذه المخادعة الفكرية عبارة : المخادعة اللغوية . من ذلك مثلا الكلام في المجال العلمي عن الطول والسرعة والحركة . فهذه الاشياء لا وجود لها في الخارج فعلا ، فهي من صنع التصور العقلي اللغوي ، وانما يوجد في الخارج اشياء طويلة واشياء متحركة لا غير ، ولا يمكن الانسان ان يتصور الطول مجردا عن الاشياء الطويلة ولا الحركة مجردة عن الاشياء المتحركة . وهذا ينطبق على كثير من الافكار المجردة او الاستعمالات اللغوية الغير الدقيقة .

فالتمحيص لا يقتصر على الافكار والاراء ، وانما يشمل اللغة بأجمعها بل كل كلمة منها بمفردها . واذا لم نعرف معنى ما نقول ومعنى الكلمات التي نستعملها ، فلا نستطيع ان نقف على الحقيقة او ننقل هذه الحقيقة الى غيرنا ، ولا سيما اذا كان هذا الغير يفهم عن الكلمات معاني مختلفة عن معانينا . ولهذا كان من الواجب ان يكون بين افراد الامة الواحدة تعارف واتفاق على معاني الكلمات ، والا كان التفاهم بينهم معدوما كالتفاهم المعدوم بين العميان . ويتسنى هذا الاتفاق على المعاني عن طريق التعليم من جهة وطريق التدرب الشخصي من جهة اخرى . ويجب اولا ان تكون اللغة واسطة طيعة يتكلم بها المتكلم والكاتب ويعرف معرفة حقة معنى كلماتها ، لا ان يكون هو طوع هذه اللغة يفكر بحسب تراكيبها لا بحسب الواقع . ويتهم العرب في

اليك يا ليث الفداء

ذاك العدو وتلك الدار فاقتحم ... واغرس حرابك في الاحشاء وانتقم
وارفع لواءك فوق القدس منتصرا ... لله والمسجد الاقصى وللحرم
وللقيامة اذ ديست قداستها ... وتاج عذرائها في كف مفتتنم
وللعروبة اذ هانت كرامتها ... وعاث في ارضها الذؤبان في نهم
انت الفداء الذي بالنفس جاد وما ... من بعد ذلك من جود ومن كرم
رعاك ربك في حل ومرتحل ... فيك الرجاء لجرح غير ملتئم

طغى الطغاة وللطغيان طفرته ... فلا تدع بغيا يمشي على قدم
فمن كمثلك في الهيجاء من بطل ... يغشى العدو ببركان من الحمم
ومن كمثلك لبى صوتموطنه ... فهب يزأر في الاغوار والقمم
اوقعت بالبغي رعبا بات يقلقه ... فظل حيران لم يهدأ ولم ينم
وكيف يطلب طيب العيش في بلد ... قد رامه بشباك الغدر والنقم
فاضرب معاقله واحرق مزارعه ... واسحق كتائبه في المعرك الضرم
ومن ورائك شعب كله امل ... وعدةلك لم تبرح ولم ترم

يا ايها البطل الفادي براحته ... وبالدماء وبالاموال والنعم
وبالمراتب اذ ضن البخيل بها ... وبالبنين وبالاهلين كلهم
ان مت مت شهيدا خالدا ابدا ... او ان تعش عشت ممدوحا بكل فم
فانت والله في الدارين ذو شرف ... مكرم حاز اجرا غير منصرم
هذا العزاء وعمر المرء محتسب ... مقدر عند رب الخلق من قدم
فلا يظن العدى ان مات واحدنا ... انا جزعنا وكلت حدة الهمم
فان يمت واحد منا سيخلفه ... الف والف بعد غير منفصم

ولست ابكيه بل ابكي الديار التي ... ان ينجلي عن حماها احلك الظلم
ولست ابكيه ما تبكي مطوقة ... من الحمائم عند القدس والحرم
كانت تبكر في الاسحار شادية ... فهالها وقع ذاك الحادث العرم
فلا يظن العدى انا نسالمهم ... فليس والله من امن ولا سلم
حتى يبارح ارض العرب شاردهم ... او ان يبادوا بها لحما على وضم

حلب

محي الدين الحاج عيسى

الوقت الحاضر أنهم يخضعون تفكيرهم للغتهم ، وليس لغتهم لتفكيرهم .

ونقول في ختام هذا المقال ان السرديين الذين لا يستطيعون الخلوص الى الافكار العامة بل يظلون يتخبطون في التفاصيل والجزئيات اعجز من ان يكون لهم عقول فاحصة ناقدة . وهم ابعد ما يكونون عن الايمان بمبدا او عقيدة ولو موقتا لان هذا يتطلب شدة تفكير واستقصاء منهم ، وهم عاجزون عن ذلك . وقد يخدعك السردي منهم بكثرة ما يورد لك من الاخبار والحكايات والاقوال والاشعار وما الى ذلك ، وتظن فيه الخير والعلم والذكاء . ولكنك انت مدرك ولا شك – اذا لم تكن انت سرديا – ان هذا المظهر من هذا السردي دليل على ضحالة الفكر وقصور العقل ، بل يجب ان يكون هذا المظهر دليلا علىوجود شخص اقلما يقال فيه انضرره اكثر مننفعه .

لندن

حسن الكرمي

أصـداء

اديـل الخشن

الشويفات ـ لبنان

يدي في يدك ،
والشوق في خطونا ،
يدي في يدك
وقلبي في النار ،
عصفور ينام في اللهب
يغرق في ضباب الرغبة
يفرفر على جموح اللحن
يغني للهمسات
يشرب الهدير
ويسقط في الزلزال !

يدي في يدك
وقلبي هلة للضوء
لحن عابق
يشق الصدر
يدق في اذني
مثل الاجراس المختنقة
يخرج من دهليز الظلمة
نبضة ، نبضة
خفقة ، خفقة ...

ويسترخي قلبي ،
ينام في يدك
تقلبه ، تقشر غموضه
تشرع ابوابه
تطوف في غرفه ،
واذ تبحر فيه
تصاب بالدوار :
نهر لولبي ،
انت فيه النبع والمصب

يدك في يدي ،



وقلبك يغني
خطاك
تفرش الدروب ربيعا
همساتك
شمس تقطر الغيوم
تزرع الصحو والانداء
تصوغ الاحلام واللآلي
تشرع نوافذ اللهفة
تفتح شرفات الغروب

يدك تتغلغل في يدي
وابحر في غابة من نخيل
سعفها مراوح تدور
السنة تلوك الفصول
تثقب جسد الهواء !

أذرع قوية
تناهض الريح
اصابع مديدة
تنفض تعب الاشواق ..

واطل بعيني :
لاغرق قلبك
في بحيرة العيون ،
لاقشر الغلاف ،
لارى اللون والنسيج
لادخل فيه شرارة
لابحث عن البدء والنهاية !

يدك في يدي
ويبقى قلبك في الكهف
موسيقى رخية
تتألق ، في ليل من الضباب
صدى يموج في بئر ،
عميق ، عميق ..
اعمق من الصمت
وابحث ،
انقب عن مسالك ،
فتزحف يدك الى اهدابي
تمسح النار بالنار
واسأل ، ..
اهمس ندائي الظامىء
فتقطع قبلتك
عنق السؤال ، !
وتمحو ايقاعه مراوح تلاح
بتوهج في حفيفها
تلهف الرمال ....

قبل ان يعين فيصل بك في دائرة (...) عرض عليه ابن خاله ابراهيم ان يشترك معه في الاتجار بالمؤن المحفوظة في الصفائح كالجبن والزيت والزيتون ، ولكنه أبى ان يعمل بنصيحته وآثر الوظيفة على العمل الحر اذ كان يعد نفسه بالنسبة الى ابن خاله رجلا مثقفا مستنيرا لايليق به عمل يقوم به العامة من الناس .

وقد بذل فيصل ما يستطيع من جهد ليحظى بالوظيفة التي يطمح اليها . وبعد مضي بضعة اشهر استطاع ان يستولي على كرسي الوظيفة . وما زال يتدرج في سلمها من حين الى اخر حتى انتهى الى منصب مرموق ، فقد اصبح موظفا كبيرا يشرف على اعمال عدد ضخم من الموظفين ويصدر اوامره فتنفذ في سرعة .

وكان يمر في الشوارع والاسواق وهو مرتد بدلته الرسمية ذات الجيوب الواسعة فينهض له معارفه محيين بابتسام وقد حنوا له رؤوسهم احتراما . وحينما يدخل مكتبه يلتقط باذنه كلمات التحية من افواه الموظفين عن اليمين وعن اليسار ، وبعينيه صورهم وهم يؤدون له التحية في رزانة وتقدير .

وبعد ان بلغ فيصل بك الستين من عمره اخذ يفكر في نفسه وفي مستقبله .

(اصوات من الداخل : دعوني استمر في الوظيفة خمس سنوات اخرى . انني قادر على العمل وان بلغت الستين من عمري . صحتي جيدة كأنني شاب. انكم تعلمون انني اتقن عملي . وقد تعودت منكم سماع كلمات التشجيع والتقدير . ارجو زيادة مدة خدمتي خمس سنوات) .

(منظر في الداخل : يجلس فيصل بك وراء طاولته الواسعة المرتفعة ، ويأخذ ـ ووجهه يفيض ابتساما ـ في قراءة كتاب وجه اليه من رئيسه وقد ذكر فيه انه تقرر زيادة مدة خدمته خمس سنوات . وبعد هنيهة يقرأ فيصل بك وهو مقطب كتابا اخر ينبئه رئيسه فيه بأنه تقرر احالته على المعاش) .

فيصل بك موظف متكبر مبالغ في رزانته وثقته بنفسه وسموه على موظفيه . صوته جهوري وبريق عينيه مخيف وكتفاه جامدتان . ليس له اصدقاء اوفياء ، وموظفوه يبغضونه ويتمنون التخلص منه بأية طريقة . انه جبار لا يرق ولا يرحم .

(فيصل بك موظف يقوم بواجبه خير قيام . انه في المكتب غيره في خارجه . يفرض هيبته وقوة شخصيته على الموظفين ، ويتشدد



بقلم عبد الحميد الانشاصي

في تطبيق الانظمة عليهم وعلى المراجعين. لايبتسم الا نادرا ليحتفظ بهيبته وقوة شخصيته . وهو يرد التحية بصوت منخفض هادىء لئلا يطمع الموظفون فيه . انه يأتي الى المكتب صباحا ويغادره مساء في الوقت المعين . وهذا ما يغيظ الموظفين ويضايقهم) .

واخيرا تسلم فيصل بك كتاب الاحالة على المعاش ، فخفق قلبه خفقانا متواصلا ، وكاد يهبط في جوفه خوفا وحزنا . ثم اعاد قراءة الكتاب ليتأكد من التاريخ الذي تقرر فيه احالته على المعاش . ولما استقرت عيناه عليه كاد يغمى عليه هما. واذن فانها الحقيقة السافرة : احالته على المعاش . نعم الاحالة على المعاش ، وترك هذا المكتب الفخم الواسع بمن فيه وما فيه من موظفين واضابير لينزوي في منزله . لا بد من خلع تلك البدلة الرسمية عنه وارتداء بدلة اخرى عادية بدلا منها . غدا يتحول الى رجل عادي بعد ان يجرد من شخصيته القوية ومن كلمة «بك».



ومنذ انبأ بعض موظفيه الكبار بذلك والموظفون يتهامسون فيما بينهم عليه ويتحدثون عنه . انه مفارقهم الى غير رجعة. سيستريحون من غطرسته وكبريائه وشدته . لم يجدوا بدا من ان ينخسوه بكلمات ساخرة جارحة قبل ان يفترق عنهم وينسوه . تقدم احدهم وهومعروف بالجراة وخفة الروح ، ثم جلس ازاء طاولة فيصل بك ، واتكأ عليها في تحد وعدم اكتراث وقال له :

ـ لقد ساءنا نبأ احالتك على المعاش . ولكن موظفا قديرا مثلك في امكانه ان يجد له وظيفة في مكتب احدى الشركات براتب لا يقل عن ستين دينارا ، فان لك خبرة واسعة بادارة الموظفين بقوة شخصيتك ولباقتك .

(غدا ستلقيك الحكومة في الشارع كما يلقي المرء قشرة البرتقالة التي لا نفع فيها . اية شركة تقبلك موظفا لديها ولو براتب ضئيل ؟ انك لا تساوي قرشا واحدا) .

فهز فيصل بك رأسه هزة افهم بها محدثه انه يدرك مرمى كلامه ، ولكنه تظاهر بالثقة بنفسه وقال :

ـ ان وظائف الشركات الخالية كثيرة ، ولي معارف كثيرون يمكنهم في سهولة ان يجدوا لي عملا .

(سأشغل منصبا كبيرا في مكتب احدى الشركات واغيظكم جميعا . هل جئت لتتهكم بي يا كلب ؟)

ثم جاء موظفان اخران وجلسا على

مقربة من الموظف الاول ليستمعا الى ما يدور بين فيصل بك وزميله من الحديث . وكانا قد سمعا طرفا منه عن بعد . وقال الموظف الاول لفيصل بك متدرجا في جراته :

ـ ان الموظف يحسب ان الوظيفة تدوم له طول حياته ، فيسرح ويمرح كما يشاء ويتفنن في اظهار مقدرته في ثقة واطمئنان كالرجل الفني يتصرف في الحياة دون ان يفكر في الموت وفي ان حياته لا بد ان تنتهي به . وحينما يأتي الموظف اجله ويحال على المعاش ينتبه لنفسه .

فابتسم موظف ثان وقال للموظف الاول :

ـ هل تعد الموظف المتقاعد من الاموات حتى يجيء اجله ؟

(رحمة الله عليك يا فيصل بك !)

فضحك الموظف الاول ثم قال :

ـ لا ، لا . لست اعني انه يغدو ميتا فقيرا تجمع له النقود لاعداد جنازة له ، بل اعني أن اجله يأتيه بالنسبة الى عمله في الوظيفة الحكومية . اما في الخارج فاذا سأله احد اصحابه : « كيف حالك؟ » اجاب : « انني اتحرك ولله الحمد » .

(وهذا مصيرك ايها المتكبر المتعجرف) .

فانطلقت الضحكات من افواه الزملاء ، وانتشرت ابتسامة مسايرة خفيفة على وجه فيصل بك الكئيب ، وقد شعر بصدمة قلبية وغاص في تفكير مذهل .

(اصوات من الداخل : لعنكم الله ايها الموظفون اللئام ! اتمنى ان اسحقكم سحقا) .

(منظر في الداخل : يهجم فيصل بك على زملائه لاكما بيده وراكلا برجله) .

★

لقد وقع نبأ التقاعد على كريمة زوجة فيصل بك وقوع الصاعقة . شعرت ساعتئذ أنها تقاعدت مع زوجها ، فقد كانت جاراتها يبالغن في احترامها والتحبب اليها لان زوجها كان موظفا ذا نفوذ يمكنه بحكم وظيفته ان يساعدهن وينتشلهن من كثير من الورطات . اما بعد اليوم فسيولين ظهورهن لكريمة اذ لم يبق فيها خير لهن .

قالت له بوجه ذابل ونفحة ضعيفة:

ـ يمكنك ان تجد لك عملا لدى احدى الشركات . انك وان بلغت الستين من عمرك لا تزال قويا نشيطا كالشباب .

(مهما كانت الوظيفة التي ستشغلها رفيعة لا تبلغ من السمو والرفعة عشر المقدار الذي بلغته الوظيفة التي خسرتها) .

ولكن فيصلا بك جلس الى احدى الكنبات في استرخاء وثقل كمن هوى من مكان مرتفع وقال :

ـ ارجو ان اوفق الى وظيفة راتبها مرض .

(ان كان الراتب ضئيلا رفضت تلك الوظيفة . ابعد ان كنت موظفا كبيرا ارضى بوظيفة صغيرة ؟)

فحدجته زوجته من مؤخر عينها وقالت :

ـ اقبل الوظيفة ولو كان راتبها ضئيلا ، فان اسرتنا كبيرة واولادنا عديدون . ولا بد ان يحتاجوا في المستقبل الى اضعاف ما ننفقه عليهم اليوم .

فقطب فيصل بك ، ثم قال في استياء :

ـ وظيفة صغيرة !

(هل انا حقير الى هذه الدرجة ؟ لن اسمح لاعدائي بالشماتة بي) .

ـ نعم . ان ذلك خير من قضاء وقتك هنا في المنزل .

فقال بنغمة زاجرة :

ـ اريد ان استريح اولا . انني في حاجة الى راحة . لي خمس سنوات لم امنح خلالها اجازة واحدة .

ـ ولم لم تطلب اجازة ؟

(الحق عليك . لماذا ارهقت نفسك هذا الارهاق ؟)

ـ لقد كنت اخشى ان يتدرب احد موظفي على عملي أثناء غيابي فيختلس منصبي مني وانقل الى وظيفة اخرى في بلد آخر .

(لولا قوة شخصيتي وانتباهي لضاع منصبي مني فان زملائي لئام كالذئاب) .

فتنهدت كريمة في تحسر وتألم ثم قالت :

ـ ارض في الوقت الحاضر بأية وظيفة ، وبعد ذلك تبحث عن وظيفة خير منها .

★

راح فيصل بك يتمشى في الاسواق ذاهبا راجعا بين جمهور غفير من المارة والباعة الثابتين والمتجولين . وكان كثيرون من معارفه يمرون به دون ان يلقوا عليه نظرة او تحية كأنه غريب عنهم . فكان يتألم في نفسه تألما شديدا ، ويسخط عليهم في عنف ، ويأخذ في لومهم ومؤاخذتهم على تجاهلهم له . وكثيرا ما كان يردد في نفسه قوله :

ـ لقد كان معارفي فيما مضى يستقبلونني قبل أن امر بهم بابتسامات منيرة وثغور مفترة حتى اذا دانيتهم سبقوني الى القاء التحية . اما اليوم فانهم يتجاهلونني كأنني غريب عنهم او كأنني لست موجودا على ظهر الارض . الانني غيرت بدلتي تغيروا علي ؟ هل كنت في البدلة الرسمية شخصا يختلف عني وانا مرتد بدلتي العادية ؟

وكان كلما مر به صديق كان فيصل بك يعز عليه كثيرا وهو موظف ـ صافحه وسأله عن صحته وتأسف على احالته على المعاش ثم قال له :

ـ هل وجدت عملا تزاوله :

(من العسير عليك أن تجد عملا يلائمك) .

وكان فيصل بك يجيبه بقوله :

ـ انني لا ابحث عن عمل فقد عملت كثيراً . وليس لي الان ان استريح . ان راتب التقاعد يكفيني . فانا لذلك لست في حاجة الى وظيفة اخرى .

(لن يأتي اليوم الذي تراني فيه اقوم بعمل بسيط فتشمت بي) .

وفي بعض الاحيان كان يسمع واحدا من المارة يقول :

- متى تبيع خضروات يا حضرة البيك ؟

(انك لست افضل منا) .

واخر يقول :

- انت لا تصلح الا للعتالة .

(ان لغة السوق غير لغة الدوائر) .

وكان يقضي بعض ساعات من نهاره في المنزل حتى اذا مل النظر الى وجه زوجته العابس خرج من المنزل وقضى بعض الوقت في احد المقاهي حيث تعود لعب الورق مع معارفه الشيوخ . اما الشبان فكان يلاعبهم بعد العصر لانصرافهم الى عملهم قبل ذلك الوقت . وفي بعض الاحيان كان يتمشى على ارصفة الاسواق والشوارع .

مل تلك العادة ، ومل سماع تلك الكلمات القاسية التي تنطلق من افواه الناس كلما مروا به او وقعت انظارهم عليه . فصمم على البحث عن عمل يتلهى به ويستخلص منه مالا للانتفاع به في الانفاق على اسرته . انه في حاجة الى الوظيفة لا لانه تعود الاضطلاع بها فحسب بل لانه لم يجمع مبلغا كبيرا من المال يمكنه من الاتجار بالبضائع في حانوت ايضا .

وبينما كان يقرأ احدى الجرائد اذ وقعت عينه على اعلان من شركة السياحة يتضمن حاجتها الى من يجيد مسك الدفاتر الحسابية ، فقابل مدير تلك الشركة . وبعد محادثته قليلا قال له :

- كم عمرك ؟

وبعد هنيهة من التردد اجاب فيصل بك كاذبا بصوت منخفض :

- اربعون سنة .

(لا شك انني في الستين من عمري ، ولكن صحتي جيدة وانا نشيط في عملي كأنني شاب) .

فابتسم المدير ابتسامة صفراء وقال :

- آسف ! ان الشركة في حاجة الى شاب لا يزيد عمره عن خمس وعشرين سنة .

ثم قال :

- هل لديك شهادة في التجارة ؟

- كلا .

فابتسم المدير ثانية في لطف وقال :

- الشخص المطلوب يجب ان يكون حاملا شهادة في التجارة .

فخرج فيصل بك في بطء وثقل نتجا عن التفكير السام العميق الذي غاص عقله فيه ، ولم يدر الى اين يذهب ولا ماذا يفعل .

ولما انبأ زوجته بما جرى بينه وبين مدير شركة السياحة انقبضت نفسها ، ولكنها لم تفقد الامل في العثور على وظيفة لزوجها . حثته على البحث عن وظيفة في شركة اخرى . فقال لها في سخط :

- اين هي الوظيفة ؟ لقد اصبحت في الستين من عمري . فاية شركة تنيط بي عملا ما ؟

(انني شيخ الان . لقد تقدمت في السن . وخير لي ان استريح . وان لم استرح في اواخر عمري فمتى استريح ؟ بعد موتي ؟) .

فأجابت كريمة بغمة حادة آمرة :

- وان يكن ؟ انك تتمتع بصحة ممتازة . هل تريد ان تقضي حياتك في البيت كالفتاة ؟

لم تكد تتم كلامها حتى حرق الارم سخطا ، وحز في نفسه ان تتغير زوجته عليه وتصبح آمرة بعد ان كان هو آمرا . ولم يخطر في باله ابدا ان البيت هو مملكة المراة وان خارج البيت هو مملكة الرجل . انها تأبى ان يشاركها في مملكتها احد ولو كان زوجها . تلبدت فوق عقله غيوم من الضيق والآلام .

(اصوات من الداخل : انني انا رب البيت . انت لا حق لك ان تحاسبيني على شيء . ان راتبي التقاعدي يكفي نفقات الاسرة . فما هذه الفلسفة السخيفة ؟)

(منظر في الداخل : يصفع فيصل بك زوجته صفعة قوية تسيل الدموع من عينيها ، فتغضب منه وتخرج من المنزل مصممة على الا تعود اليه) .

★

وقف فيصل بك على احد ارصفة الاسواق يتفرج على التجار والمارة من الناس . يبدو كبحر زاخر بأمواجه - بحر صاخب من شدة الحيوية . هذا يحمل بضائع ليوصلها الى منزله ، وذاك يدفع امامه عربة موفرة بالخضروات ، وذاك ينادي على بضاعته في حانوته ، واخر يسير مستعجلا ليقوم بعمل يقتضي السرعة . بحر مؤلف من رجال ونساء واطفال وسيارات . حركة ولغط واصوات مرتفعة واضحة . رؤوس تعلو ورؤوس تنخفض .

وكان هو واقفا وحده يتفرج . كان يصغي بأذنين محشوتين افكارا تسربت اليهما من عقله المرهق من كثرة ما سمع من اقوال الشامتين التي يكررونها دائما بلا عطف ولا رحمة - الشامتين الذين يريدون ان يروه ذليلا حقيرا لانه كان اعلى منزلة منهم يأمر تارة ويصفح اخرى . وقد تصور نفسه غريقا في ذلك البحر الزاخر فشعر بحاجة شديدة الى من يمد اليه يده وينقذه منه ويسبح به الى شاطىء السلامة . ومما غاظه ان رجلا اصطدمت كتفه بكتفه هو ، فكاد يقع على الارض ، وشعر كأنما ذلك الرجل اراد ان ينحيه عن طريقه ليقوم بعمله .

وانه لكذلك اذ راى احد اصدقائه يقترب منه ، ثم القى يده على كتفه وقال له :

- هل وجدت لك عملا يا عزيزي ؟

فابتسم فيصل بك ابتسامة مغتصبة ، واجاب كاذبا :

- انني لا ابحث عن عمل . ولكن لا مانع من قبول وظيفة تلائمني

(ان كنت تعلم ان هناك وظائف شاغرة في بعض الشركات فاعلمني بها) .

فقال صديقه بنغمة مشجعة :

- لقد سمعت ان هناك وظيفة شاغرة في شركة الملاحة . هل

الصبية اللعوب

ضاحكة لعوب   حبيبة القلوب
بفمها كلامها   من رقة يذوب
في وجهها صباحة   جملها الشحوب
ضحكتها طيبة   كنفحة الطيوب
كأنها فجر الضحى   أو غيمة الغروب
لا ادري هل تحبني   ام حبها يذوب
عن حبها لا انثني   ولا انا اتوب
يا لائمي لا تنتقد   ولا تكن غضوب
لو تدري ما رقتها   وجوهها الطروب
لهمت بالحسن الذي   يستأثر القلوب
وصرت مثلي عاشقا   وتهت .. في الدروب

زحلة ـ لبنان   رياض معلوف

سمعت بها ؟ .

(لست ادري هل تقبل تلك الشركة ان تعين من هو في مثل سنك) .

فقال فيصل بك في فتور وعدم مبالاة مصنوعين :

ـ حسن ! سأرى . قد اقابل مدير شركة الملاحة .

(اخشى ان تنتهي مقابلتي اياه بمثل ما انتهت به مقابلتي لمدير شركة السياحة من قبل) .

وبعد ان مضى صديقه اخذ يفكر في المقابلة القادمة . لقد صمم في هذه المرة ان يبدو أمام مدير شركة الملاحة شابا وان يصغر سنه اكثر مما فعل من قبل . فصبغ شعره ، وارتدى افخر بدلاته ، ووضع في جيبها العلوي منديلا حريريا مزخرفا امتد لسانه الى اعلى . وصفف على طرف ذلك الجيب بضعة اقلام ثمينة كان قد أهداها اليه بعض المتهمين حينما كان موظفا كبيرا . وقف ساعات وهو يحسن من هيئة وجهه امام المرآة . ثم قابل مدير شركة الملاحة وادعى انه في الثلاثين من عمره . ولكن المدير ايقن انه اكبر سنا من ذلك بكثير وان كان مظهره يخدع البصر . وحينما سأله المدير هل يتقن الانجليزية اجابه فيصل بك انه يعرف القليل منها . فعاد خائبا فاشلا .

وفي طريقه عرج على حانوت ابن خاله ابراهيم ، تاجر المؤن المحفوظة . فجلس عنده قليلا ليرفه عن نفسه . وكان ابن خاله يقوم بأعماله في الحانوت بنشاط غريب . يحادث هذا ، ويزن البضائع لذاك ، ويتسلم النقود من المشترين . وكان بنطلونه متسخا لظهور بقع من الزيت عليه . ولكن فيصلا بك كان يعلم ان بنطلونه لم يحل ان يجمع عددا كبيرا من الدنانير في كل يوم ويضيفها الى ما تجمع من ماله في البنك . وهو يعلم ايضا ان ابن خاله شيدت له دار فخمة ، وانه اشترى سيارة ممتازة ، وان اولاده يدرسون في الجامعات . فكاد يموت غما واسفا لانه ابى أن يعمل بنصيحته حينما عرض عليه ان يشاركه في الاتجار بالمؤن المحفوظة قبل تعيينه في الدائرة .

وفي ذات يوم التقاه صديق له لم يره منذ عدة سنين ، وقال له في ابتسام :

ـ اين انت يا عزيزي ؟ لقد سمعت انك احلت على المعاش وانك تبحث عن عمل . انا الان ادير مصنعا كبيرا للحلويات . اريد ان اعينك مراقبا للعمال براتب مقداره ثلاثون دينارا . فما رأيك ؟

فأضاء وجه فيصل بك بابتسامة ملؤها الفرح والراحة والشكر وقال :

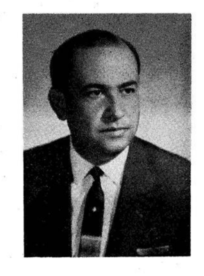
ـ اشكرك يا عزيزي . لا شك انك صديق مخلص وفي . اشكرك شكرا جزيلا .

ولما علمت كريمة بنبأ تعيين زوجها مراقبا لعمال مصنع الحلويات كادت تطير فرحا ، وكذلك اولاده . اجتمع افراد الاسرة وتحلقوا حول ربها في ضحك ومرح . فشعر فيصل بك بأن حياة جديدة دبت في قلبه وفي قلوب افراد اسرته ، وان الثقة والطمأنينة عادتا الى نفسه الذابلة فأكسبتاها تفاؤلا وأملا وشبابا .

عمان   عبد الحميد الانشاصي

الى طفل الامس

فـؤاد الخشن



ايها الطفل المغني للنجـوم
ياصديق القمر الذائب في ليل الكروم!
يا شراعا كاد في العمر يضيع
قم تطلع ، ان في الكون الوسيع
الف درب لم تمزق بحصاها قدميك
الف افق رائع اغلقت عنه ناظريك !

ايها العائش في الاحلام ..
في احلـى ضـلال
يا فؤادا كان للناس لكل الناس حبا
يفدق الذات من الاعراق سكبا
ايها الطفل الذي قد صار شكا
في الذي يبدو ويخفى ويقال
هكذا شاء لعينيك القدر
رؤية تسفر عن وجه البشر !

★

لا تفجر في الزرايا نقمة
هي يا ابن النور ضعف بشري
واذا ما الصحب يوما اذنبوا
واساءوا مرة فاغتفر !
لا تجردهم ، لما يرضيك ، من
واقع في دمهم كالقدر
وتؤمل رشفة الآل بما
لون القول ووهم الصور
ربما كان لهم معتقد
يرسم الدرب ووجه السفر ..
ليتك الان كما كنت على
زورق الحلم لتلك الجزر
غازلا غيم الاماني ... لا ترى
شبح الغدر ولمع الخنجر !



★

خل في نفسك غرفة
مخبـأ للسـر ...
غـارا مقفـلا
يتشهى الناس كشفه
ويتوقون الى كنز من المجهول خلفه
خلـه للـذات ....
للاعـراق ، خمـرا
ورؤى تـزرع بالآمال عمـرا
خل في النفس جزيـرة
لامـيـرة
عينها الخضراء صحو .. ووفاء
وبحيرات من الشوق شفيفات الصفاء!

محمد العدناني ـ نجاتي صدقي

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ محمد العدناني

لو عدنا بعجلة التاريخ الى الوراء ، وقدر للشاعر العدناني أن يعاصر البعث الاسلامي في فجره الاول ، ويرى الرسول العربي الكريم داعية الى الجهاد في سبيل الله ، ويسمع رسول الله داعيا الى العدالة الاجتماعية والى المساواة بين الناس ، فلم يفرق بين السيد والمسود ولا بين الحر والعبد ولا بين الغني والفقير والقوي والضعيف ، وانما الناس كأسنان المشط لا يمتاز بعضهم على بعض ولا يصح ان يستعلي بعضهم على بعض : لو قدر هذا كله للشاعر العدناني في فجر الدعوة المحمدية لكان من أوائل من دخلوا في الاسلام ولهاجر الى يثرب مع الصفوة المختارة وشارك في الجهاد بما ملكت ايمانه في سبيل اعلاء كلمة التوحيد ونشرها ، ولنافس ابا ذر الغفاري في حماسه للاسلام والجهر به والدفاع عن الدين الطهور ، وحسان بن ثابت في حظوته لدى الرسول بشعر جزل يعبق منه عطر الايمان .

ولد العدناني في مدينة جنين بفلسطين عام ١٩٠٣ وكان والده المرحوم « فريد » قائم مقام في تلك المدينة ، وتلقى علومه في مدارس جنين وطولكرم وغزة ودوما ثم في مدرسة الفنون الاميركية بصيدا ثم في الجامعة الاميركية ببيروت . وعملا بوصية والده درس الطب سنتين تحضيريتين وسنتين اخريين في كلية الطب وعندما التقى بامير الشعراء أحمد شوقي في لبنان وأنشده بعض منظومه وتلا عليه قصيدته التي عارض بها قصيدة ابن زريق البغدادي ومطلعها :

لا تعذليه فان العذل يولعه ... قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعه

ووصل الى قوله :

رأيته عندها ، والدمع مضطرب ... الجفن يحبسه ، والوجد يدفعه
فخلت نفسك تدري ما ألم به ... يوم الفراق ، وما تبديه ادمعه
وفي المآقي دموع لست تنظرها ... وفي الضلوعِ أنين لست تسمعه

قام شوقي وقبل العدناني من جبينه واصر عليه ان يترك كلية الطب الى كلية الاداب بالجامعة الاميركية ، فنزل عند ارادة شوقي وقد وعده ان يكون له أبا روحيا ، وتخرج عام ١٩٢٧ وسافر الى العراق والتحق بدار المعلمين العليا وبالثانوية المركزية ببغداد استاذا وزامل شاعر العراق الكبير معروف الرصافي ، وبعد أربع سنوات في سلك التعليم عاد الى فلسطين وعين استاذا للادب العربي في كلية النجاح الوطنية بنابلس « ١٩٣١ ـ ١٩٣٣ » وانتقل الى الكلية الرشيدية بالقدس استاذا للادب العربي مدة تسع سنوات وفي عام ١٩٤١ دخل مباراة شعرية كان موضوعها « حرب الطيارات » فتفوق على شعراء فلسطين والاردن وفاز بالجائزة الاولى ومن قصيدته الفائزة :

تروعت الافلاك وانتشر الذعر ... وضج الفضاء الرحب والبر والبحر
ودوى نذير الويل فارتعدت له الفرا ... ئص والاوصال وانقبض الصدر
وطار الى جوف الملاجىء معشر ... لهم كل فجر في ملاجئهم عمر
يؤمونها والليل مضطرب الحشا ... يطوف في أرجائه الرعب والنكر
تفاجئه أسراب جن عزيفها ... تميد له الدنيا ، ويرتجف الدهر

وجزاء نشاطه في القطاع الوطني اعتقلته السلطات البريطانية ثلاث مرات ونفته الى يافا ومكث فيها خمس سنوات ثم عاد الى القدس ليرأس القسم العربي للامتحانات الجامعية في دائرة المعارف العامة .

وفي عام ١٩٤٨ ، عام النكبة الفلسطينية القاصمة ، قصد مدينة الزرقاء بالاردن وعاش فيها مشردا وما لبث ان بارحها الى دمشق وعلم في كلية الهندسة بالجامعة السورية وفي كلية التجارة بجامعة حلب ثم عاد الى صيدا بلبنان خريف عام ١٩٦٤ مديرا لكلية المقاصد الاسلامية .

والمؤرخ المنصف لا بد ان يقف مليا أمام جهاده القومي ليسجل صراعه مع الاستعمار الغربي في كافة اسمائه والوانه . ففي عام ١٩١٨، وهو طالب في مدرسة الفنون الاميركية بصيدا قاوم الفرنسيين الغزاة ولولا صغر سنه لاجهز عليه الفرسان المراكشيون بسيوفهم . وانذر بالطرد مرتين لالقائه قصيدتين فيهما تهجم على الاستعمار ودعوة الى الوحدة العربية . وفي ٦ آيار ١٩٢٧ اعتقله الفرنسيون لقصيدة حماسية القاها يوم الشهداء وهموا بطرده من بيروت ولولا انه كان على وشك التخرج من الجامعة الاميركية لقذفوا به خارج لبنان مع زميليه أحمد الشقيري ، ويوسف الكيلاني (من بغداد) .

وابان تدريسه في بغداد اعتقل مرتين ، الاولى لتحريضه على الثورة ضد الانتداب البريطاني يوم وفاة الثائر العراقي الكبير الشيخ ضاري المحمود اثناء محاكمته ، والثانية لاشتركه مع طلابه ومع الشعب العراقي في الحيلولة دون دخول اليهودي البريطاني الفرد موند (اللورد ميلتشت فيما بعد) بغداد بعد ان أقام له يهود بغداد معالم الزينة فنجح في الغاء الزينة وحال دون دخول ذلك الصهيوني دار السلام .

وفي فلسطين اعتقل العدناني ثلاث مرات ونفي مرة الى يافا عام ١٩٤٢ مع الاقامة الجبرية متهما بالتحريض على الثورة ضد الانكليز بعد وصول القائد الالماني رومل الى العلمين ابان الحرب العالمية الثانية وبنظم الشعر الحماسي وبأحاديثه في المجالس ضد بريطانيا .

وفي سورية دعا الى تأييد الوحدة التي قامت في ٢١ شباط ١٩٥٨ بين مصر وسورية ، قولا وعملا ايمانا منه بان هذه الوحدة هي نواة الوحدة العربية الكبرى ، وأبقى الاتحاد القومي الفلسطيني ، في محافظتي حلب وأدلبَ ، (وكان العدناني رئيس لجنته العليا ابان الوحدة) مفتوح الابواب سنة كاملة ، بينما اغلق دعاة الانفصال جميع الاتحادات في كافة المحافظات السورية .

والذين يعرفون « أبا نزار » يشهدون انه لم ينتم طيلة حياته الى أي حزب سياسي واشتهر منذ شبابه بالدعوة الى الوحدة العربية الكبرى وبمحاربة التعصب الديني ولا عجب في ذلك فالعرب الفلسطينيون اول من قضى على التفرقة الدينية التي زرع بذورها المستعمر واليهود وغذوها سرا وجهرا لكن يقظة العربي الفلسطيني ووعيه قضت على هذه النأمة الخبيثة وظل شعاره « العرب عرب قبل عيسى ومحمد ! » .

واعتزازا من العدناني ، بعروبته استبدل اسم جده لابيه وهو « خورشيد » باسم « العدناني » وأنشد في ذلك مخاطبا نفسه :

نشأت على هوى الفصحى صبيا ... ومع شعرائها خضت العبابا
ولم تر غير آي الله وردا ... فراح اللب يلتهم الكتابا
وحملت اسم « خورشيد » ولما ... تمت الى الاكاسرة انتسابا
لقد ظلموك ، فالدم يعربي ... من « الزهراء » سال سنى وطابا

من آثاره القلمية : كتب العدناني الكثير من المقالات، ونظم الكثير من القصائد ، لكنه لم ينشر الا القليل من منظومه ومنثوره . ودونك اسماء ما لفظته المطبعة العربية من مؤلفاته :

(١) اللهيب (٢) ملحمة الامومة (٣) فجر العروبة (٤) الوثوب (٥) روض (٦) في السرير « وهي قصة واقعية جرت لمؤلفها » (٧) شوقي بين العاطفة والتاريخ (٨) الاعراب الواضح « خمسة اجزاء تشمل جميع القواعد العربية » (٩) النحو البسيط (١٠) ابو بكر الصديق

(١١) الوردان الوفـي (١٢) الروضة « خمسة اجزاء بالاشتراك مع آخرين » (١٣) قصص للاطفال « ثلاث قصص بالاشتراك مع آخرين » .

اما مؤلفاته المخطوطة فكثيرة وقد وقفنا منها على التالية اسماؤها :

(١) مقالات ومحاضرات متنوعة في ١٤ مجلدا (٢) روائـع الادب العربي وطرائفه في ١٧ مجلدا (٣) العبير (٤) الغروب (٥) قلب (٦) وحي الفؤاد (٧) زهر (٨) سلمى « ملحمة غزلية » (٩) أقاصيص للاطفال في ٧ أجزاء (١٠) عمر بن الخطاب « جـزآن » (١١) أقاصيص موضوعة (١٢) أقاصيص مترجمة خمسة اجزاء (١٣) أخطـاء لغوية شائعة (١٤) الخواطر « جزآن » (١٥) تاريـخ حياتي (١٦) عربي في برلـين « قصة جرت حوادثها للمؤلف » (١٧) كلمـات خالدة (١٨) المـرأة (١٩) الشعر المقفى والشعر الحر (٢٠) نكاتي (٢١) قصص عالميـة « تلخيص وتعليق » (٢٢) فلسفة الاسماء (٢٣) آراء وخواطر في الادب .

نماذج من شعره : يلمس الدارس في أدب العدناني نظما ونثرا معاني عضرية وديباجة بحترية مع سلاسة في اللفظ ورقة في العبارة . ويقف الباحث في شعره على أبيات حكيمة تدل على عمق في تفكيره وسعة في اطلاعه على الادبين العربي والغربي . ووقف العدناني جل منظومه على ظلامة فلسطين وبث شكاتها واسماع أناتها لمـن يتوسم فيهم العدالـة .

وفي اعقاب عام ١٩٤٧ تآمرت هيئة الامم على فلسطين فاقـرت تقسيمها واثر ذلك نظم العدناني قصيدة مطولة منها :

أجهضت هيئة الامم ... عندما باعت الذمم
جهضها دولة الربا ... والمواخير والنقم
جيشها المكر والنسا ... تبذل العرض في الظلم
تحسب المال أنه ... يخلق العز والشمم
وترى فيه فخرها ... وذرى مجدها الاشم
وترى الخلق أنه ... لا يساوي سوى العدم
بئس ، والله ، دولة ... للخنا ترفع العلم
ولدت أمس ميتة ... دولة الشر والقرم
فاذا قيل : انها ... حية مهجة ودم
قلت : لا شك انها ... حية اللسع والالم
ملمس جد لين ... وفم منه فاض سم
ليس تخشى زعافها ... أمة العزم والهمم
ان فينا حواتها ... يبطلون الردى الاصم
فاشهدي دفنها غدا ... ويك يا هيئة الامم !

ونعي الى العدناني القائد الشهيد عبد القادر الحسيني الـذي استشهد في معركة القسطل مساء الخميس ٨ ـ ٤ ـ ١٩٤٨ فارسل شاعرنا ، وهو طريح الفراش في المستشفى الحكومي بالقدس قصيدة في تحية هذا الشهيد استهلها بقوله :

زغردي اليوم يا جنان الخلود ... واهتفي بالنشيد تلو النشيد
واجعلي النيرات في الافق ... يوقعن لحون الترحيب بابن الصيد
جاء سبط الرسول طلق الاسارير ... محاطا بهالة التمجيد
وعليه من الفخار رداء ... نسجته يد الجهاد الفريد
ارخص الروح ذائدا عن حماه ... بصيال أطار لب اليهود

وطوحت النكبة الفلسطينية الاولى بالعدناني الى الزرقاء بالاردن والى دمشق والشهباء في أقصى الشمال من سورية ، وقذفت به النوى الى شاطىء صيدا ورغم هذا التشرد ظل وفيا لفلسطين يسأل الشمس عنها كل صباح ، ويردد ذكراها ويهتف باسمها العـذب ، الحبيب الى كل قلب :

ينازعني وجدا الى تربك القلب ... ويقرع باب الصدر يلهبه الحب
وتوري حنيني لهفة عربية ... فتحتدم الاشواق يعيا بها الصب
وتورق آمالي ، فيهفو الى اللقا ... حبيس ضلوع ضم أشلاءه الجنب
وتنعشني الذكرى ، فتعبق بالمنى ... أزاهير أحلام ، بها أينع اللب
وتومض آمالي ، فيغمر مهجتي ... ضياء من الايمان بالعرب لا يخبو
يبدد كربا في سمائي تلبدت ... سحائبه دكنا ، فينقشع الكرب
واهفو الى مغناك مضطرم الهوى ... وصدري بالاحلام مرتعه خصب
فهل انت مثلي يا فلسطين ! للاسى ... وللشوق، والبأساء بعدالنوى نهب
وهل تذكرين ابنا بحبك هائما ... يحطمه بعد ، وينقذه قرب
قضت أمه بعد النزوح تحسرا ... فكنت له أما بها يخصب الجدب
أتاك وطي الصدر نار تأججت ... من الوجد ، حتى كاد يلهمه اللهب
ولولا دموع من حنين تدفقت ... وأطفأت البركان، لاجتاحني النحب
وأشفقت أن أمشي على طاهر الثرى ... فجئتك كالاطفال، فوق الثرى أحبو
وقبلت منك الوهد والحزن جاثيا ... وقد بز ثغري في صبابته القلب
تمرغ في ترب الجدود كلاهما ... وخطت عليه وجدها بالدم الهدب
وفي كل درب سرت والمسك رائدي ... فما فاتت الطرف الحفي بها درب
وان هوى الاوطان عندي عبادة ... يمجدها التاريخ والحق والكتب
فيا وطني ! قد كنت أول قبلة ... لها اتجه الهادي «محمد» الندب
وفيك الى الرحمن معراج احمد ... وضم خليل الله من نجدك الترب
وحسبك ميلاد المسيح ابن مريم ... أبي المعجزات الغر، يا وطني حسب
أياوطني ! هل تسمع اليوم خافقي؟ ... وهل نقل النجوى الى أرضك الوجب
لئن حال بالتقسيم بينك حائل ... وبيني فلا (يافا) احتفت بي ولا (النقب)
ولا (الرملة) البيضاء و(اللد) والربى ... تناثر في أرض الجليل ، ولا الهضب
ولا البحرفي (حيفا) و(عكا) ضمني ... بامواجه ، والافق مبتسم رحب
لئن قيل : ماء البحر ملح فانه ... على كبدي ـ كالماء في نبعه ـ عذب
ولا الزهر أصبى في الرياض أريجه ... جناني ، ومن آرامها ما رنا سرب
فما كان تقسيما لارجاء موطن ... ولكن لشعب ضمه الشرق والغرب
ففي كل قطر لي أخ وشقيقة ... ونسل بروحي افتديهم ، ولي صحب
نثرنا كماء المزن في كل بلدة ... ولولا انتشار المزن، ما نبت الحب
وان نثر العقد النظيم فانما ... سينظم در العقد في سمطه الدأب
فلم يعرنا يأس يفتت عزمنا ... ولا نالنا من بأس أخصامنا رهب
فليس يرجى الغيث كالدر هاطلا ... اذا السحب السوداء ماسحها الحلب
سنجعل دنيا المجد تجثو لنا غدا ... ونشهد اسرائيل ما تفعل العرب
تدور عليهم مثلما دارت الرحى ... على برها ، والناصري لها قطب
ونجتث طاعون الوري من جذورهم ... كما اجتثت للايقاد من جذره الدلب
فليس كقومي في البرية معشر ... وليس كشعبي في الدنى كلها شعب!

٢ ـ نجاتـي صدقـي

الكاتب العظيم ، كما قال الانسان المفكر سلامه موسى ، يمكن ان يكون بعضه فيلسوفا ، او بعضه عالما ، أو بعضه آديبا ، ولكن معظمه يجب ان يكون على الدوام « انسانا » وهذا هو « نجاتي صدقي » .

ولدنجاتي في بيت المقدس عام ١٩٠٥ وكان جده لأبيه احدقادة السلطان عبد الحميد ، برتبة آلاي أميني ، جاء الى دمشق وبيروت في أعقاب القرن التاسع عشر ، ثم انتقل الى القدس واقترن بآنسة عربيـة عريقـة النجـار .

أما والده فهو بكر صدقي المولود في بيت المقدس ومدرس اللغة التركية في المدرسة المأمونية وهاوي الفنون الجميلة كالموسيقى والرسم والتصوير واول من ادخل الحاكي « الفونغراف » الى مسقط رأسه اذ كان يضعه على شرفة بيته المطل على باب الساهرة ، والناس جالسـون على الصخور في ضوء القمر ، يرهفون الاسماع الى الصوت الرخيـم المنبعث من اسطوانة عجيبة ومن بوق أعجب !

تلقى نجاتي تعليمه الابتدائي في المدرسة التي اسسها الشيخ محمد الصالح ببيت المقدس ، ثم في مدارس « المأمونية » و « الرشادية » و « السلطاني » . وبعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارهـا صحب والده الى الحجاز عام ١٩١٩ وكان والده برتبة زعيم في قـوات

الشريف فيصل بن الحسين ، واقام في الطائف ودرس فيها ثم عاد مع أبيه الى القاهرة فبيت المقدس ليعمل موظفا في مصلحة البرق والبريد ثم سافر الى روسيا عام ١٩٢٥ والتحق بجامعة موسكو وحصل منها على شهادة بكلوريوس في السياسة والاقتصاد السياسي ودرس الاداب الروسية اجتهادا اضافيا منه ، وفي عام ١٩٢٩ عاد الى فلسطين وأسهم في الحركات السرية الوطنية الى ان اعتقلته السلطات البريطانية عام ١٩٣٠ وحكمت عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات قضى شطرا منها في السجن المركزي بالقدس حيث اشترك وشجع على عصيان مدني ضد الادارة البريطانية ، فنقل على الاثر الى سجن عكا .

بعد أن أمضى نجاتي مدة السجن عام ١٩٣٣ قصد فرنسا واتصل بـ « عصبة مقاومة الاستعمار » وأصدر في هذا العام صحيفة شهرية باللغة العربية اسماها « الشرق العربي » باسم مستعار هو « مصطفى العمري » وكانت توزع خفية على الاقطار العربية الى ان أمر رئيس الوزارة الفرنسية وقتئذ المسيو بيير لافال ، الذي اعدم بعد الحرب الكونية الثانية لتعاونه مع النازيين ، باغلاقها وقد أصدر نجاتي منها ٢٦عددا واشتهرت هذهالصحيفة بمناصرة الحركات الاستقلالية فيالمغرب العربي وفي اقطار المشرق المغربي .

وفي باريس التقى نجاتي بالمرحومين رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وقد جاءا لمفاوضة فرنسا ، كما التقى بالتونسي الاول الحبيب بو رقيبه ، يوم كان لاجئا سياسيا ، ينزل ضيفا على جمعية المساعدة الحمراء اليسارية « سيكو – روج » كما تعرف في العاصمة الفرنسية الى السيدة ليوفانر ، وهي عضو بارز في «عصبة مقاومة الاستعمار» .

وبعد ان اندلعت نار الثورة الاهلية في اسبانيا قصدها مراسلا صحفيا وحل ضيفا على الحكومة الجمهورية وقابل الزعيمة الاسبانية الشهيرة دو لوريس ايبارودي المعروفة باســم « البا سيو ناريا » اي « الصورة » وتوجه الى الخطوط الامامية بالقرب من قرطبة وتحدث الى الاسرى المغاربة ، من اتباع الزعيم المغربي عبد الخالق الطريسي ، وساعدهم في محنتهم بوصفهم « ضحايا ابرياء » كما أسهم مع فريق من الاسبان في تأسيس « الجمعية الاسبانية المغربية » في مدريد .

وعاد « نجاتي » الى الوطن وعمل مدة عشر سنوات (١٩٤٠ – ١٩٥٠) مراقبا للبرامج في « محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية » في يافا والقدس وبعد وقوع النكبة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) صحبها الى قبرص واخيرا استقر في بيروت وعمل في حقل الاذاعة والصحافة والادب .

يملك « نجاتي » قلما خصبا اشتهر صاحبه بالقصة القصيرة وتأثر بادبائها الاعلام امثـال : انطون تشيخوف « من الروس » وغي دي موباسان « من الفرنسيين » وادغار الن بو « من الامريكيين » ، ونشر الكثير من نتاجه في أشهر المجلات العربية أمثال :

(١) مجلة « العرب » ، القدس ، لصاحبها ورئيس تحريرها عجاج نويهض ، سنة ١٩٣٣ بتوقيع « باحث » .

(٢) مجلة « الطليعة » ، بيروت ، في سنتي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ ، نشر فيها ابحاثا هامة منها « آراء مادية في تاريخ الحركة الوطنية العربية » .

(٣) مجلة « الجمهور » ، بيروت ، لصاحبها ميشال ابو شهلا سنة ١٩٣٨ ، تحرير عام .

(٤) جريدة « النهار » ، بيروت ، لصاحبها جبران تويني ، سنة ١٩٣٨ ، محرر اقتصادي .

(٥) صحيفة « المكشوف » ، بيروت ، لصاحبها الشيخ فؤاد حبيش ، سنة ١٩٣٨ ، نقد .

(٦) جريدة « البشير » ، بيروت ، سنة ١٩٣٩ ، ابحاث اقتصادية

(٧) مجلة « المراحل المصورة » ، بيروت ، لصاحبها غبريال خباز ، سنة ١٩٤٠ ، تحرير عام .

(٨) مجلة « الرسالة » ، القاهرة « في سني ١٩٤٦ – ١٩٥١ » ، نقد ، قصص ، فلسطينيات .

(٩) مجلة « الاديب » ، بيروت ، لصاحبها البير أديب ، « في سني ١٩٥٠ – ١٩٦١ » نقد ، ترجمة ، قصص .

(١٠) مجلة « الكتاب » ، القاهرة ، « في سني ١٩٤٨ – ١٩٥٢ » دراسات وقصص .

(١١) مجلة « الاذاعة » ، بيروت ، لصاحبها فائق خوري « في سنتي ١٩٥٢ – ١٩٥٣ » ، معالجة أهم القضايا الاذاعية في لبنان والبلاد العربية .

(١٢) مجلة « صوت المرأة » ، بيروت « في سني ١٩٥١ – ١٩٥٤ » قصص ومقالات .

(١٣) مجلة « الهاتف » ، بغداد ، لصاحبها جعفر الخليلي « في سنتي ١٩٥٣ – ١٩٥٤ » نقد ، قصص ، مقالات .

(١٤) مجلة « أهل النفط » ، بيروت ، سنة ١٩٥٧ ، مقالات .

(١٥) مجلة « الرائد العربي » الكويتية الصادرة في بيروت « في سني ١٩٦٠ – ١٩٦٣ » تحرير عام .

(١٦) مجلة « قافلة الزيت » الظهران « في سني ١٩٥٩ – ١٩٦٧ » قصص ودراسات .

(١٧) مجلة « الحوادث » ، بيروت ، لصاحبها سليم اللوزي « في سنتي ١٩٦٠ – ١٩٦١ » قصص ونقد .

(١٨) مجلة « الاذاعة البريطانية » ، لندن « في سني ١٩٥٨ – ١٩٦٧ » قصص و ١٣ حلقة من أشهر القصص العالمية .

من آثاره القلمية : أثرى « نجاتي » المكتبة العربية بطائفة من الكتب الطريفة ، ودونك اسماء ما اتيح لنا الوقوف عليه من آثاره المطبوعة :

(١) التاريخ والتقاليد الاسلامية ، دراسة ، دار الكشاف ، بيروت سنة ١٩٤٠ ، وقد ترجم الى اللغة الانكليزية بلندن ، وقدم له السير حسن سهروردي ، مندوب الهند لدى البلاط الملكي .

(٢) بوشكين ، العدد ٢٨ سنة ١٩٤٥ من سلسلة « اقرأ » دراسة

(٣) تشيخوف ، العدد ٥٠ سنة ١٩٦٧ من سلسلة « اقرأ » طبعة ثانية ١٩٦٧ ، دراسة .

(٤) مكسيم غوركي ، العدد ١٦٢ سنة ١٩٥٦ من سلسلة « اقرأ » دراسة .

(٥) الاخوات الحزينات ، ١٨ اقصوصة موضوعة ، سنة ١٩٥٣ ، القاهرة .

(٦) الشيوعي المليونير ، ٢٣ اقصوصة موضوعة ، سنة ١٩٦٣ ، بيروت .

(٧) الخنفسة الذهبية ، ١٣ قصة للكاتب الامريكي ادغار الن بو ، سنة ١٩٥٤ ، بيروت .

(٨) بيتر زنجر ، مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد ، سنة ١٩٥٩ ، بيروت .

(٩) المختار من القصص الروسي ، سنة ١٩٥٢ ، بيروت

(١٠) المختار من القصص الصيني ، سنة ١٩٥٢ ، بيروت

(١١) المختار من القصص الاسباني سنة ١٩٥٣ ، بيروت

(١٢) الارملة الملول وقصص اخرى سنة ١٩٥٣ ، بيروت

(١٣) كارمـن سنة ١٩٦٤ ، بيروت للكاتب الفرنسي بروسبير ميريمه .

ولقد تناول نتاجه القصصي الدكتور هاشم ياغي في محاضراته عن القصة القصيرة في فلسطين والاردن (١٨٥٠ – ١٩٦٥) والتي القاها على طلبة قسم الدراسات الادبيةواللغوية ، كما تطرق الدكتور ناصرالدين الاسد الى ترجماته وقصصه في كتابيه « الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن » و « خليل بيدس » . واصدرت دار الاداب الاجنبية

في موسكو (١٩٦٣) كتابا عن القصة العربية وفيه ترجمة «الجثة الحية» المنشورة في « الاخوات الحزينات » .

ومن اعماله الاخيرة ترجمة قصيدة « الغراب » لادغار الن بو وبحث جديد عن « النظام الكنجوي ومجنون ليلى » ، وهو يعد العدة لاصدار مجموعته القصصية الثالثة وكتاب آخر يشتمل على المختار من ابحاثه ودراساته .

نموذج من نثره : « كنت ذات ليلة أغط في نوم هادىء ، لا أحلم بشيء قطعا ، فلا اشباح تتراءى لي ، ولا خيالات تضغط على نفسي ، ولا مغامرات مزعجة أقوم بها في مجالات تتغير وتتبدل سراعا .. كل شيء مستسلم الى السكينة في مخيلتي وكاني انام في غرفة مظلمة لا ابواب لها ولا نوافذ ... وفجاة احسست برعشة قوية ، تبعها خفقان سريع في القلب ، وتشنج في أعصاب المعدة ، فانتصبت على قدمي وأنا الهث مرتعبا ، وتراءى لي ان كل شيء قد انتهى، فاستنجدت باهل البيت ، ثم تناولت بعض الملينات والمسكنات ، وأتبعتها بكوب من الشاي والزهورات ، وعبثا حاولت النوم ، وعلى الاصح كنت اطرد هذا النوم حتى آكون واعيا ، مترصدا للمفاجآت ، متحسبا للطوارىء .

هذه هي طبيعة الانسان ، يتمسك باهداب الحياة بشدة ، ويقاوم المخاطر التي تهدد حياته بعنف وشراسة ، لانه يدرك ان الحياة هي فرصته الكبرى في هذه الدنيا ، وانها نعمة الخالق وعليه ان يحافظ عليها الى ان تنفد كل وسيلة وحيلة .

حتى ان المنتحر الذي عقد النية بكامل عقله وادراكه على وضع حد لحياته ، تجده في اللحظة التي يدنو فيها من الموت ، يطلق صرخات الاستنجاد لانقاذه ، والحفاظ على حياته ، فاحيانا تجديه هذه الصرخات نفعا ، واحيانا لا يجد آذانا صاغية ، فيبتلعه البحر او النهر ، او يسقط جثة هامدة في شارع ، او يتحطم على صخر .

وهكذا قاومت الخطر ، وسددت في وجهه المسالك الى ان طلع النهار ، فاسرعت الى العيادة الطبية التابعة للمستشفى الاهلي ، فوجدت عند نافذة التسجيل جمعا من المرضى ، وخشيت الانتظار لانني أحس بخفقان القلب ، والخفقان معناه اصابة في القلب ، فاقتحمت الصف وطلبت من المسجل بالحاح ان يمنحني الاولوية لانني مصاب بالقلب ، وحملته المسؤولية الكاملة اذا لم يستجب الى طلبي ، فارتبك المسجل ، وتبلبل الحضور ، وفزت بالاولوية في التسجيل ، ثم حولت الى الطبيب الذي يجري الفحوص التمهيدية ، فسألني مم اشكو ... فاجبته بلسان مرتعش : انني مريض بالقلب يا دكتور .. فجس نبضي، وانصت بالسماعة الى دقاته ، وقيد ذراعي بمقياس الضغط ، واطبق أصابع يده على النفاخة المطاط مثنى وثلاث ورباع ، ثم قال لي : ان علائم التوتر العصبي بادية جلية ، لكنني لا استطيع الجزم بوجود مرض في قلبك ، وساحيلك على قسم تخطيط القلب الواقع في الطابق الخامس من المستشفى .. فقلت له : وكيف استطيع الصعود الى الطابق الخامس وانا في هذه المرحلة الخطرة من مرض القلب ؟ فطمأنني قائلا : ان المصعد الكهربائي يوصلني الى غرفة التخطيط ، فتركت مكتبه متثاقلا ، وأنا أحمل سجل الفحوصات التمهيدية بيدي ، ثم تبين لي ان المصعد معطل فارتعبت وعدت الى الطبيب لاخبره بالامر ، فطمأنني ثانية قائلا : لا بأس عليك من الصعود على الدرج ببطء وتؤدة، اذ ان في تحريك الدورة الدموية قبل التخطيط فائدة كبرى .

قلت : ألا يتعب القلب من الصعود وهو في أمس الحاجة الى الراحة :

قال : نحن الذين نقرر النفع من الضرر وليس انت !

ورحت اصعد درج المستشفى درجة درجة مستندا الى « الدربزين » ومستنشقا الهواء بعمق واصرار .. وحدث في هذه الاثناء ان مر من امامي اربعة من مستخدمي المستشفى يحملون رجلا على كرسي وكانه مهراجا .. فاستوقفت ممرضة وسألتها عما يشكوه هذا الرجل من مرض ، فاجابت مسرعة : « عنده مرض قلب بعيد عنك ! » وكان لكلام الممرضة هذا اثر ساحق في نفسي ، فجلست على الدرج ، ولولا الخجل لطلبت من مستخدمي المستشفى ان ينقلوني الى غرفة التخطيط حملا على الاكتاف .. فقسوت على نفسي وأكملت الصعود الى الطابق الخامس ، ثم ولجت غرفة التخطيط ، وناولت السجل الى الممرضة بيد مرتجفة ، فطلبت مني على الفور ان استلقي على سرير خاص ، ثم طوقت رأسي بسير من الجلد ، تتخلله اسلاك معدنية ، ووضعت سيرين متصلين بسلك معدني على معصمي ، وسيرين آخرين على رسغي ، وطوقتني بسير كبير وهي تقول لي : لا تخف .. أحس وكأنني مقيد الى كرسي كهربائي ، ولكن في حالة استلقاء لا في حالة جلوس ، أو انني آجلس في صاروخ سينطلق بي الى الابعاد السماوية .. فابديت حركات عصبية عنيفة ، الى ان ضجت الممرضة وصرخت قائلة : ويلاه .. آنت أول زبون يبدي مثل هذه العصبية والمقاومة والممانعة .. اثبت! وادارت المفاتيح ، وأخذت القناديل الحمراء والخضراء ترسل الاشارات ، ثم اخذت آلة التخطيط تشخر وتخرخر ، والممرضة تدون على دفتر ما تريد تدوينه ، وبعد عشر دقائق حلت السيور ، واعانتني في ارتداء ثيابي وقالت لي : عد غدا الى الطبيب الذي عاينك ليعطيك النتائج التي توصلت اليها أجهزة التخطيط .

قلت لها متوسلا : هل لي ان اطمع بكلمة منك ؟ قالت بلهجة صارمة : لا استطيع ، ممنوع !

لقد هالني ان انتظر اربعا وعشرين ساعة حتى اعرف نتيجة مرض القلب الذي أرزح تحت وطأته ، فعزفت عن الاكل والحديث ، واظلمت الدنيا في ناظري ، فلا منظر جمال يسترعي انتباهي ، ولا خير يفرحني او يزعجني ، ولا طرفة تضحكني او ترفه عني .. لا شيء من ذلك قطعا ، فالحياة أضحت في نظري جامدة رتيبة ، خالية من كل قيمة او معنى !

وحلت الساعة العصيبة في اليوم التالي ، وتوجهت بالسيارة الى عيادة الطبيب الفاحص ، فأحالني بدوره الى طبيب آخر ، فبسط امامه سجل فحوصي ، ومخطط قلبي ، ثم قال لي : اسمع النتيجة يا استاذ .. فجعلت حياتي كلها في هذه اللحظة تتركز في اذني ... قال : ضخ الاذينين ١٢٥ ضخ البطينيين ١٢٥ يعني ان عملية الضخ طبيعية .. ثم راح يشرح لي بعض الرموز المشار اليها باحرف وكلها تقول ان حالة القلب طبيعية ، ثم وصل الى فحص المحور الكهربائي وقرأ امامه رقم ٤٢ درجة ـ طبيعي .. ثم خلص الى النتيجة العامة للتخطيط الكهربائي فكانت « نورمال » ! وألقى علي الطبيب نظرة فاحصة وقال : انك في تمام الصحة والعافية ، وقلبك مثل الحديد ..

فصحت قائلا : عجبا ! قال : العجب ان تدعي انك مريض بالقلب .. والعجب انتزعج نفسك واسرتك ، وترهق الاطباء والمرضات! فلم ارتح لملاحظاته هذه وسألته كيف تفسر ظاهرة الهزة الليلية ، وخفقان القلب المتواصل ، والشعور التام بمرض القلب .. فهذه الظواهر مجتمعة هي التي حملتني على الاعتقاد بوجود هذا المرض ، وهي التي حددت سلوكي عند المسجل ، والطبيب الفاحص ، والممرضة المخططة للقلب .

فتلطف الطبيب المختص واخذ يقنعني علميا بانني سليم القلب، وقال : يعرف الطب عشرين نوعا من امراض القلب وهي ناتجة عن عطب في عضلات القلب او في صماماته ، او في تبطيناته الداخلية ، وان هناك ايضا مايعرف باضطرابات القلب الوظيفية ، وهي عابرة وغير ناتجة عن عطب عضوي ، والتحاليل التي توصلنا اليها بصددك لا تشير الى أية حالة من هذه الحالات بل انها تنفي وجودها تماما .

وتابع الطبيب كلامه ، بعد ان لاحظ انني بت اميل الى الهدوء والارتياح وقال : ان لمرض القلب ظواهر ومقدمات ، وانت لم تشك

الصيف قادم جري،

يا قاتل الربيع في الظلام ..
يا صالب السلام في مشانق الزيتون
يا سارق النعاس قبل الفجر من اجفان عيلبون
يا حاصد النجوم في مساجد الخليل
ستذبل الازهار ..
ويقبل النهار
يئن في ضلوع الشمس كالقتيل
تجتره الاشواك والالام
فينزف السلام .
وتذرف الاشعة الصفراء
اضواءها على الدماء
فيلهث التراب : يسترحم السماء بالدعاء
يا مبدع الالام
يا غافر الاثام
قد ذابت الشموع
وجفت الدموع
وامتد في عيونها السراب ..
القدس .. يا رفيقة الشباب
وفي معابد الخليل .. قد خيم الضباب

يا قاتل الربيع في الظلام
يا موثق الحمام

الصيف قادم جريء
وانت عابر جبان
وفي عيون القدس برعم بريء
تلوكه الاحزان .
يمد ساعديه للشعاع
فيهرب النهار
ويقبل الخريف
وتسقط الاوراق
فترقص السنونو وقصة الرحيل
تمر كالاطياف في عيون عيلبون
ترف في شوارع الخليل
فيطعن الاصيل ..
يا قاتل الربيع
ستهطل الامطار
ويرعد الشتاء ..
ويعبر النهار ..
ويقبل المساء ...
ويولد الربيع من جديد
يا قاتل الربيع في الظلام
في كل عام يولد الربيع

حلب — عادل اديب آغا

منها قبلا ، ولم تراجع بشأنها اي طبيب اختصاصي ، ومن علامات هذا المرض الاولية : تضاؤل في التنفس عند القيام بأية حركة .. وألم في الصدر مصحوب بضغط ، تشعر بهما كلما أنزلت ذراعك اليسرى الى اسفل .. وتورم في الرسغين او في البطن .. ودوار في الرأس ورؤية الاشياء مزدوجة وهي ظاهرة خطرة .. وعسر هضم مبهم ودائم.. ووجع في الرأس متواصل .. وتعب غيرناتج عن ارهاق ولامبرر له بتاتا .. فهل تعرضت لمثل هذه الظواهر ؟

قلت : كلا !

قال : ما الذي يحملك اذن على تعذيب نفسك ؟

قلت : لم يكن لي يد في ما حصل ، لقد فوجئت بالهزة الليلية وهي اشبه بكابوس مروع ، وبت اسير مخاوفي وهواجسي ، ولجات الى الطب .

قال : لقد أحسنت صنعا بلجوئك الى الطب ، وانني اقول لك الان انت معافى ، وليس لقلبك أية علاقة لما حدث لك ، وبالخفقان الذي اختبرته وانت نائم الا نتيجة لحالة عصبية !

قلت : لقد انتقلنا اذن من القلب الى الرأس !

فضحك وقال : لا شيء من هذا قطعا ، فانت سليم من حالات السيكوزا ، والنوروزا ، والسيكونوروزا ، وكل ما في الامر انك تقف احيانا امام مشاكل نفسية لا تجد لها حلا ، فتقول شيئا لا تريده ، وتقدم على امر انت عنه غير راض ، وتسعى الى شيء يتعذر عليك بلوغه .. فتحدث لك هذه المواقف المتناقضة انفعالات داخلية ، تنفجر في شكل هزة عنيفة .

قلت : وهل من علاج لهذه الحالات النفسية ؟

قال : علاجك بيدك .. كف عن استعمال الادوية ، تنزه في الهواء الطلق ، اجلس عند شاطىء البحر في ساعات العصر ، اركن الى الهدوء والدعة ، وسلم امورك المستعصية الى القدر .. واذا كنت لا تستطيع اتباع هذه النصائح فستجد نفسك ذات يوم مستلقيا على السرير ومقيدا الى السيور !

قلت : سرير تخطيط القلب ؟

قال : لا ، سرير الصدمات الكهربائية ، المعروف باسم (الكترو ـ شوك) !

عمان ـ الاردن — البدوي الملثم

نقولا الحداد .. الاديب والعالم

بقلم نقولا يوسف

* * *

عندما انتقل الاديب العالم نقولا الحداد الى دار البقاء في ربيع ١٩٥٤ شيخا مثقلا منيفا على الثمانين ، ومخلفا من المصنفات الاجتماعية والعلمية والقصصية نحو الخمسين ، ومن النبذ والقصائد والمقالات بضع مئات ـ موزعة على وفرة من الصحف والمجلات ، لم ينتبه اصدقاؤه الى النعي المقتضب الذي نشرته اسرته يومذاك في احدى الجرائد ، فلما علموا بعد ايام كتبت قلة منهم كلمات رثائية موجزة تعبر عن تقديرهم ووفائهم ، وبدأ بعضهم مقاله بمعاتبة الكتاب الذين لم يذكروه بمقالاتهم او قصائدهم او حفلاتهم (١) ـ ثم طوى معاصروه ذكره ، ولم يدرك الجيل الجديد خبره واثره ..

وكنت بين عارفيه ومقدريه ، ومع ذلك لم انشر عنه قبل اليوم سطرا واحدا .. اقول « لم انشر » وان كنت قد كتبت جل ما جاء هنا في هذا المقال عقب وفاته ، وضممته الى مخطوطة جمعت فيها الذكريات عن « ادباء عرفتهم » ـ املا في نشرها مجتمعة في كتاب لم يقدر له الظهور بعد ، وكان القلم اذا تحرك لبعث كلمة عن اديب عزيز راحل ، فجع بنعي جديد لاخ اخر لاحق .. واقول « بين عارفيه » ـ وكنا ايام الصبا نقرأ روايات نقولاالحداد البوليسية المترجمة ، ثم المنشورة في « مسامرات الشعب » ، وكنا في اعقاب ثورة ١٩١٩ نقرأ له بمجلة « اللطائف المصورة » قصصه المستلهمة من تلك الثورة .. وفي العشرينات ظهرت مؤلفاته الاجتماعية وتلتها ابحاثه العلمية . هذا الى سيل من المقالات والقصص المنهمرة على الصحف العربية لم ينقطع طوال نصف قرن .. وكان هناك من يعده من رواد القصة الحديثة ، ومن يراه مصلحا اجتماعيا يتخذ من شتى فروع الادب سبلا للتهذيب والتوعية والاصلاح ..

ثم سعدت في الثلاثينات بمجلسه ، تارة في احد المقاهي المنثورة على شاطىء النيل بناحية « روض الفرج » بالقاهرة ، حيث كان يخلو مع كتابه في الصباح الصائف ... وتارة بأحد مقاهي « شارع عماد الدين » حيث ينفرد في الليل او ينضم الى حلقات الادباء السامرين هناك .. واخيرا كان من الميسور لقاءه في صيدليته بشبرا ، وكان يعرفها المتادبون لما يجدونه بها من رعاية حتى ليقص عليك بعضهم ان الاديب الفقير كان اذا قصد عيادة الطبيب الشاعر ابراهيم ناجي وصف له الدواء بالمجان وحوله الى صيدلية الحداد في الشارع نفسه ليتسلم الدواء بالمجان ايضا ..

ثم لا يلبث ان يكشف جليسه ومحدثه عما طبع عليه الحداد الانسان من دماثة في الخلق ، وصراحة في الرأي ، وتواضع وحياء ، وما يشغل رأسه من اهتمامات بمشاكل المجتمع الانساني عامة، وقضايا العرب خاصة ، وما يدخر من اطلاع واسع على المراجع العلمية والاجتماعية الحديثة ، وما تتملكه من رغبة في تثقيف مواطنيه ثقافة علمية لا يهمل فيها شأن الادب ..

الصحفي

وكان نقولا الحداد قد شب على تعلق بالصحافة والكتابة في الصحف هاويا ومحترفا، ولمتتركه هذهالنزعة طيلةحياته. كما نشأمولعا بالادب وبخاصة القصة والشعر ، وساعدت البيئة الاولى ذات المحاسن الطبيعية حيث ولد وشب، علىتنمية هذه الميول الادبية. فقد ولد لابيه الياس الحداد في قرية « جون » بقضاء الشوف قرب دير المخلص شمالي صيدا بلبنان (في ٢٥ من ديسمبر ١٨٧٢) وهناك تلقى تعليمه الاول . ثم جاء الى مصر في مطلع الشباب ، والتحق بجريدة «الاهرام» مترجما نحو اربع سنوات ، واخذ أيضا يعرب الروايات البوليسية والاجتماعية .. ولكنه وجد العمل الصحفي ، وبخاصة في ذلك العهد ، لا يعين على الحياة المستقرة الميسورة ، فعاد الى بيروت ليدرس الصيدلة في « الجامعة الامريكية » وتخرج بعد اربع سنوات حاملا اجازة « صيدلي قانوني » ..

ورجع الى القاهرة عازما على انشاء صيدلية ، ولكنه انساق مع هوايته الصحفية وقبل التحرير بجريدة « الرائد المصري » اليومية ، وبجريدة « المؤيد » (التي انشأها الشيخ علي يوسف عام ١٨٨٩) .. ثم عاد الى « الاهرام »كما عاد يعاني متاعب العيش ..

وفي تلك الفترة عرف نقولا الحداد زميلا صحفيا واديبا لامعا ، يقاربه في السن والمبادىء التقدمية هو الكاتب فرح انطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) المولود بطرابلس الشام ، والذي جاء الى الاسكندرية في شبابه ، وحرر بجريدة « صدى الاهرام » نحو ستة اشهر ، وانشأ بالاسكندرية مجلته المشهورة « الجامعة » في مارس ١٨٩٩ وثابر على اصدارها سبع سنوات كانت خلالها مدرسة حديثة تثقف فيها الكثير من الكتاب . وفي الوقت نفسه عاون شقيقته السيدة روز انطون على انشاء مجلة نسائية باسم « مجلة السيدات والبنات » صدر عددها الاول في اول نيسان (ابريل) ١٩٠٣ ولكنها احتجبت بعد عامها الثاني لتظهر بالقاهرة عام ١٩٢١ في ثوب جديد وليشترك في تحريرها نقولا الحداد ..

وتزوج نقولا الحداد من شقيقة فرح انطون ، السيدة روز الحداد، صاحبة مجلة « السيدات » .. واتفق الزميلان فرح والحداد على النزوح الى المهجر الامريكي ليصدرا هناك صحيفة عربية باسم «الجامعة» .. ورحلا عام ١٩٠٧ الى الولايات المتحدة الامريكية في اثر القافلة العربية التي غزت شتى بقاع الامريكتين حاملة معها لغتها وثقافتها وتقاليدها .. وهناك اصدرا « الجامعة » .. غير ان ازمات اقتصادية اجتاحت امريكا يومئذاك وعصفت بهذه الصحيفة ايضا فتوقفت عن الصدور ، وعاد فرح انطون الى القاهرة وصحافتها وتنقل بين تحرير « مصر الفتاة » ١٩١١ و « المحروسة » ١٩١٣ و « الاهالي » ١٩٢١ . وكان يؤلف ويترجم المسرحيات والكتب الادبية والروايات ، وقد بلغت عند وفاته عام ١٩٢٢ نحو الثلاثين كتابا . وما زلنا نطلع على صفحة من جهاده في الكتاب الذي نشره نقولا الحداد بعنوان « تاريخ فرح انطون ومراثيه مع تمثيلية ـ صلاح الدين وفتح بيت المقدس » ، الى جانب مجلدات « الجامعة » ..

ولا شك ان نقولا الحداد قد تأثر في شبابه بنهج فرح انطون كما تأثر به كثيرون غيره وفي مقدمتهم الكاتبان الكبيران سلامه موسى وابراهيم المصري .. على الرغم من الحياة القصيرة التي عاشها فرح (٤٨ عاما) ..

عاد فرح انطون الى مصر واما نقولا الحداد فقد بقي فترة في المهجر الامريكي يتاجر بالسجاد ليكفل لنفسه واسرته العيش ولكنه ما لبث ان ترك تجارته وآب الى القاهرة وانشأ بها صيدليته التي اصبحت مورد رزقه .. ومع ذلك لم ينقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات ، والتاليف والترجمة .. وتفرقت كتاباته بمجلات : الهلال والمقتطف واللطائف المصورة والرسالة والادب الحي ، وفي صحف الاهرام والمقطم والجهاد .. وغيرها ..

وفي عام ١٩٢١ اصدر نقولا الحداد وقرينته السيدة روز الحداد مجلة « السيدات والرجال » . وظلت تصدر حتى عام ١٩٣٢ حين حجبتها قوانين صدقي باشا مع كثير من الصحف والمجلات غيرها .

ودخلت مجلداتها وما حوت من قصص الحداد ومقالاته في تاريخ النقد الادبي .. وكما سلف كانت روز الحداد قد انشأت هذه المجلة بالاسكندرية عام ١٩٠٣ بمعاونة شقيقها فرح انطون وتوقفت هناك بعد عامين ، ولما اعادتها بالقاهرة عام ١٩٢١ مع زوجها شهرية مصورة مجددة تحت اسمها الجديد « مجلة السيدات والرجال » افردا بها قسما نسائيا عن الاسرة وتربية الطفل والمائدة والازياء وسائر شؤون المرأة ، وابوابا للفنون الجميلة وعلامات القطع الموسيقية . وكان نقولا الحداد ينشر بها القصص القصيرة والمسلسلة التي تحوم حول المسائل الاجتماعية والعلمية الى جانب مقالاته الادبية والاجتماعية والسياسية.

وفي عام ١٩٤٩ اختير نقولا الحداد رئيسا لتحرير مجلة «المقتطف» بالقاهرة خلفا للمرحوم اسماعيل مظهر صاحب مجلة « العصور » الذي تنحى عن تحريره لاشتغاله بالتاليف والمعجم . وبدأ الحداد رئاسته هذه منذ عدد ديسمبر ١٩٤٩ وتركه بعد عدد اكتوبر ١٩٥٠ - اي احد عشر شهرا كتب معظم اعدادها بقلمه . وقد ابدى اسباب تنحيه في حديث صحفي وخلاصتها عدم رضائه عن طريقة اخراج المقتطف وورقه وطبعه في تلك الفترة (٢) .. ولم يعمر المقتطف بعد ذلك طويلا ..

ولم يكن نقولا الحداد غريبا عن « المقتطف » وهو من نشأ في مدرسته ، وعاصر تطوره منذ نقله من بيروت الى القاهرة عام ١٨٨٥ في سنته التاسعة ، وكان الحداد مقربا الى العلامة يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) تجذبه نحوه اهتماماته بالعلماء وكشوفهم العلمية ، وحثه على الاخذ بالتفكير العلمي ، وجهاده في توضيح الاسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة ، جهادا استغرق نصف القرن الاخير من حياته (٣) واخذ نقولا الحداد يكتب في « المقتطف » خلال حياة مؤسسه وبعدها حتى قبيل احتجابه .. ولم تزل مجلدات المقتطف تضم تلك الوفرة من مقالاته العلمية والاجتماعية والفلسفية ، ومن قصصه ورواياته ، ومن مؤلفاته الملحقة بالمجلة ، وكلها تشير الى ثقافة واسعة تزاوج بين العلم والادب ، وتهدف الى الاهتمام بالعلوم وتطوراتها الحديثة .. وعلى صفحات المقتطف ايضا كان دكتور شبلي شميل (١٨٦٠ - ١٩١٧) يعالج نظرية التطور ويعرض آراء داروين وزملائه ، ويتبعه اسماعيل مظهر ، ويثيران النقاش حول تلك النظرية ، ثم يعاضدها سلامه موسى ونقولا الحداد ويوضحان اثرها في المجتمع البشري .

ومما يذكر عن نقولا الحداد حين رأس تحرير المقتطف انه كان يكتب ثلاثةارباع المجلة من مقالات وقصص ونحوها. فتراه مثلا فيعدد ديسمبر ١٩٤٩ يكتب ست مقالات : - النسبية في العملة المتداولة ، ما هي الغاية القصوى ، الوراثة الاجتماعية تطغى على الوراثة الطبيعية ، الضمان الجماعي ، حجة فلسطين ومن ذا كتبها لليهود ، سقراط الفيلسوف ، ثم اقصوصة « ابن الطبيعة » ، ويلحق بهذا العدد رواية في نحو سبعين صفحةبعنوان : « دولة سيدات في مملكة نساء » تدور حول اسطورة « الامازونيات » المحاربات اللاتي تحدث عن دولتهن هيرودوت وهوميروس .. وتراه في العدد التالي (يناير ١٩٥٠) يكتب مقالتين علميتين : - تضخم الكون الاعظم ، منشؤه ومصيره ، ولو نضب البترول استخرجناه من الماء والهواء والصخور ، وقصتين قصيرتين : الحرية والعبودية ، وضريح شهيدة الامانة .. ثم كتابين فلسفيين مسلسلين : فلسفة الوجود ، والعزلة في رأس الجبل ... واخيرا قصيدة شعرية علمية « بين عام وعام » .. وهكذا مع سائر الاعداد ، مما يكشف عن اهتماماته وتشعب سبله ..

كذلك كانت مجلة « الهلال » ميدانا فسيحا لابحاث الحداد ، في حياة مؤسسها جورجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) وبعد وفاته ... وهذه مجلدات الهلال تحتفظبابحاثه ومقالاته وقصصه الاجتماعية والعلمية ، ولم يجمع اكثرها في كتب مستقلة ، وبينها مقالاته في السياسة العالمية ، وقضية السلام والحرب ، وعصبة الامم ، وفي الاشتراكية (ومن ذلك مقالته الوافية عن الاشتراكية في عدد اكتوبر ١٩١٨) .. كما طبعت له دار الهلال كتابا بعنوان « الاشتراكية » .. غير ان الحداد تحدث في مقالة نشرت له قبيل وفاته بمجلة اخرى (٤) معبرا عن المه من اهمال المجلات العربية وقتذاك للابحاث الجدية وبخاصة العلمية وتوخيها اقبال العامة لا تثقيفهم .. وجاء بها يومذاك (ديسمبر ١٩٥٣) : « .. بقي الهلال وقد كان تاريخيا اكثر منه علميا ، وراق لمؤسسه المرحوم جورجي زيدان في حياته ان يجعله اجتماعيا وعلميا ، وطلب مني معاونته في هذا السبيل ، ولكن الله اخذ وديعته (١٩١٤) قبل ان نمضي في هذه المهمة . ولطالما كتبت في الهلال مقالات علمية واجتماعية كنت اكتبها بلا اجر . وكنت افعل ذلك لاني كنت اود خدمة العلم والادب .. وآخر مقال كتبته كان موضوعه « حجم ذرة الاثير » وقد صنعته من افكاري الخاصة التي تولدت عندي من مطالعاتي ودراساتي العلمية في مؤلفات كبار العلماء .. وبعد ان كتبته ارسلته الى صاحب الهلال فرده لي وهو يقول : انه آسف لعدم نشره لانالقراء لا يلتذون موضوعا كهذا ولا يفهمونه ، فارسلته توا الى الاستاذ فؤاد صروف الذي كان يتولى تحرير المقتطف حينئذ فنشره في صدر العدد الذي كان يعده للصدور من المقتطف .. »

القصـــة

وكان نقولا الحداد من رواد القصة العربية الحديثة .. ترك عددا وافرا من القصص القصيرة والطويلة - المؤلفة والمترجمة والمقتبسة ، وكان ينشرها في الصحف والمجلات او في كتب مطبوعة ، منذ مطلعالقرن العشرين .. وقد بدأ منذصباه يترجم القصص البوليسية ثم الاجتماعية في سلسلة « مسامرات الشعب » .. ومنذ العشرينات كان ينشر القصص القصيرة والمسلسلة في مجلات « اللطائف المصورة » و « السيدات » و « المقتطف » و « الهلال » وغيرها .. وظل يكتب القصص العلمية والاجتماعية والرمزية والتمثيلية الى اواخر حياته .

ومن رواياته المترجمة في « مسامرات الشعب » : حب في ثورة ، وعقد الملكة ، وكلاهما عن ديماس ، والزهرة الحمراء للبارونة اورزي ، والحرب الجوية ، والعقرب ، وزوجة بالاسم ..

وفي « اللطائف المصورة »: فتاة آل عثمان ، تحت راية مصطفى كمال ، المنطاد المنتقم ، فتاة الاناضول ...

ومن رواياته المقتبسة : حواء الجديدة ، آدم الجديد ، الحقيبة الزرقاء ، فاتنة الامبراطور ، عين بعين ، الامبراطورة تيودوره (الهلال يناير ١٩٤٤) ، اين الكنز يا شرلوك هولمز ..

ومن قصصه الموضوعة : فرعونة العرب عند الترك ، ثورة في جهنم ، وداعا ايها الشرق ، جمعية اخوان العهد ، العالم الجديد ، نبية لبنان ، الصديق المجهول ، ثورة عواطف ، المقدس .

ومن قصصه المصرية الموضوع: زغلول مصر ، زغاليل مصر ، زغلولات مصر ، حركات السيدات في الانتخابات ، من عرابي الى زغلول ، اسرار مصر ..

ومن قصصه العلمية والفلسفية : ابن الطبيعة ، ضريح شهيدة الامانة ، العزلة في رأس الجبل ، الحرية والعبودية ، مشاجرة بين احياء واموات (نشرها جميعا بالمقتطف - ١٩٤٩ و١٩٥٠) واعلن عن قصة اعدها للطبع بعنوان « ليت الشباب يعود » .. وروايتين : دوقة في مصر ، وسر الكنز ..

ومن رواياته التي اعدها للمسرح : دولة سيدات في مملكة نساء (نشرها في شكل قصة بالمقتطف ديسمبر ١٩٤٩) .. واعلن عن تمثيليتين معدتين للطبع هما : خالد بن الوليد ، والحب الذهبي ...

وهو في كل ما الف وترجم من القصص ، ادى ولا شك خدمة ادبية للحركة القصصية العربية الحديثة ، وكان بذلك من رواد فن القصة .. ويضع النقاد قصصه المؤلفة ذات الافكار المبتكرة في الاعتبار الاول .. ولا شك انه اتخذ القصة وسيلة لعلاج نقائص المجتمع ودعوة الى الاصلاح ، الى جانب المقالة والكتاب ..

ففي روايته الموضوعة : « دولة سيدات في مملكة نساء » (الملحقة بالمقتطف ديسمبر ١٩٤٩) والتي تدور حول اسطورة الامازونيات المحاربات اللاتي كان لهن دولة مستقلة في بنطس بآسيا الصغرى على شاطىء البحر الاسود ، ولا يعيش فيها رجال (كما حدث هيرودوت) يصور المؤلف الصراع بين الطبيعة البشرية التي تسير الناس وتعمل على بقاء النوع ، وبين العقيدة التي تفرضها عليهم نبوءات الكاهنات اللواتي كن يزعمن انهن نبيات بوحي من الالهة بينما كانت تلك التكهنات مكائد ينصبها هؤلاء ومن يلوذ بهم ، فلا غرو ان ينتصر الحب في النهاية.

وفي اقصوصته « ضريح شهيدة الامانة » التي يجريها على السنة الحيوان يصور الامانة والوفاء في نفس كلبة تذهب ضحية ولائها لسيدها الصياد الذي وكل اليها حراسة صيده من البط فذهبت طعمة لحريق الغابة ، ويرغم زوجها الكلب ، سيده الصياد ، على ان يحفر لها قبرا في حديقة الدار ويضع عليه الازهار ثم يلازم الزوج قبرها حتى يموت ، ويدفنه الصياد الى جنبها ويكتب على ضريحهما « هنا ضريح شهيدي الامانة والوفاء » .. وفي سياق الحوار البارع بين الكلبة وابن آوى والحمار يعقد المؤلف مقارنة بين الانسان والحيوان في بعض الصفات .

وفي اقصوصة : « ابن الطبيعة » (المقتطف ديسمبر ١٩٤٩) يعالج المؤلف حكاية زواج غير شرعي اثمر ولدا وضع في ملجأ ، وتبناه زوجان غنيان وعلماه حتى تخرج محاميا في سن العشرين ثم يعلم انه دخيل عليهما ويفضل فراقهما حافظا لهما الحب والوفاء ويقول لهما : « انا ابن الطبيعة ـ فبحكم الطبيعة ولدني والدي وبحكم الطبيعة عطف علي ابوان غريبان .. الطبيعة خلقت العطف هنا والشهوة هناك. فكلا الفريقين كانا ينفذان سنة الطبيعة . الآن انا ابن الطبيعة » .. ولما عثر على والديه الاولين اللذين وضعاه في الملجأ واظهرا له حبهما اجاب : « اين كان (حبكما) خابيا في العشرين سنة الغابرة فلم ينفجر ؟ تكاد جمراته تنطفىء ، فلم يبق بيننا حب يا والدي . وانما بقي بيننا احترام واكرام ! » .

وفي قصة : « الحرية والعبودية » تلتقي العبودية الشيخة بالحرية الطفلة ، ويدور بينهما حوار فلسفي موزع على ما يشبه القصة عن عالم مجنون لم يزل اناسه يتخبطون بين الحرية والعبودية في تصرفاتهم وحياتهم كلها ..

وتتنوع قصص الحداد وتكثر ، وتتعدد فيها المشاكل الاجتماعية والسياسية ، والمسائل العلمية والفلسفية .. ولهذا وجب جمعها في مجلد واحد او اكثر يلم شملها ، ويكمل بعضها البعض الآخر ، امام القارىء المستعرض والناقد الفاحص ..

الكاتب الاجتماعي

وكما اتخذ نقولا الحداد من القصة الهادفة وسيلة لمعالجة المشاكل الاجتماعية ، والنقائص الاخلاقية ، ودعوة الى تطوير المجتمع الشرقي على النهج العلمي الحديث ، فقد رمى ايضا من كتابة المقالات ووضع المؤلفات الى هذه الغايات .. والى جانب ما نشر في الصحف والمجلات من مئات الابحاث فقد رأينا له من الكتب ما يحمل هذه العناوين : الاشتراكية (اوائل القرن العشرين) ، علم الاجتماع (في جزأين نحو ٧٠٠ صفحة ـ ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) ، الحب والزواج (١٩٢٦)، ذكرا وانثى خلقهم (١٩٢٧) ، مناهج الحياة ، اسرار الحياة الزوجية (بتصرف عن دكتورة ماري ستوبس) ، كما ترجم كتابين يجمعان بين الاجتماع والتاريخ ،هما: « شعوب اوروبا » و « تاريخ اساس الشرائع الانجليزية » ..

ويعد كتابه « علم الاجتماع » في جزأيه من اهم واكبر مؤلفاته .. ومما شرحه في جزئه الاول : منشأ الاجتماعية وعللها ، حتمية التجمع واساليبه ومكانه ، الوحدة الاجتماعية ، اطوار الزواج ، التئام الوحدات الاجتماعية ، العلاقة النظامية بين الافراد ، نظام الدولة .. العقل الاجتماعي ، العادات الاصطلاحية ، طبيعة التقاليد ، الرأي العام ، الكدح لاجل الرزق ، عمران البيئة ، تزاحم السكان .. الخ وفي الجزء الثاني ، بحث في ماهية التطور ونواميسه الطبيعية ، والبون بين فردية الحيوان واجتماعية الانسان ، والتطور الاجتماعي التاريخي .. ودور تكون الدولة ، وضحى التمدن وظهر التمدن ... ومعنى التقدم التمدني وغايته .. الخ ..

وختم المؤلف كتابه بقوله : « ما هو التقدم التمدني ؟ هو التمادي في جمع القوى الطبيعية وانفاقها . فكلما خطت الهيئة الاجتماعية خطوة الى الامام جمعت من القوى اكثر وانفقت اكثر .. ولكي تستطيع ان تتمادى في جمع القوة وصرفها ، يجب اولا ان تتمكن من اعتقال قوات الطبيعة او الظفر بها . ثانيا ان يكون التنظيم الاجتماعي اتم . ثالثا ـ ان تكون شخصية الفرد الاجتماعي ارقى . هذه الاهليات الثلاث يجب ان تكون متعاونة ومطردة الرقي . اما شخصية الفرد فمركز القوة العقلية المسيطرة المدبرة ، ولولاها لاستحال الرقي التمدني بتاتا . والقوة العقلية ليست القوة التي تجمع وتنفق ، بل هي القوة التي اكتشفت نواميس القوى الطبيعية واعتقلتها .. فالقوة العقلية لا تولد قوة مادية بل تسيطر على القوة المادية ، وتجمعها كما تشاء وتحولها الى حيث تشاء ... »

ثم يقول : «.. لا يمكن ان يطرد التقدم الا اذا كانت الهيئة الاجتماعية تجمع من القوى اكثر مما تنفق . فاطراد تقدمها الذي شاهدناه يثبت لنا انها تجمع اكثر مما تنفق .. فماذا تفعل بالزائد ؟ الجواب : تارة يذهب الزائد سدى في التنازع (الحروب) ، وتارة يتحول الى نمو في جسم الامة ، وتارة ترتفع به درجة التمتع . وكثيرا ما تحدث الامور الثلاثة معا . والدليل على ذلك اولا ان عدد السكان اليوم زاد جدا عنه في الازمنة الماضية ، ثانيا ان الحروب الاخيرة كانت اهول الحروب ، واكثرها استهلاكا للقوى ، وثالثا ـ ان درجة التمتع قد ارتفعت كثيرا جدا عنها في الازمنة القديمة (اذا استثنيت بعض ملوك الاقدمين وهم نزر من الشعب) وكثيرون من الناس اليوم يعيشون عيشة الملوك » .

« اذا لم يبق عندك ريب ان الهيئة الاجتماعية متقدمة جدا في جمع القوى وانفاقها في تمتعها ، وانما يثلم هذا التقدم عيبان : الاول، انه مع غزارة ما تجمعة الهيئة الاجتماعية من القوى لا يزال جانب من افرادها منغصين لعدم التناسب في التمتع ، والثاني ان جانبا من القوى يتحول الى عوامل التدمير ، بدل التعمير ، كالحروب الدموية وغيرها ... »

ويقول نقولا الحداد انه في عام ١٩٠١ نشر كتابا بعنوان « الحب والزواج » ولما طلب منه اعادة طبعه فضل اعادة تأليفه على تنقيحه ، واضاف اليه بحثين هما «الحب والزواج عند الهمج» و « حب الحيوانات وجمالها » . وظهر الكتاب في طبعته الجديدة عام ١٩٢٦ باحثا في الحب وغايته ، والجمال وصنوفه ، وانواع الحب وموقف الرجل والمراة ازاءه،

---

(١) منها مقالتان لوديع فلسطين في « الاديب » ١٩٥٤ ، و « العلوم » ببيروت ـ ١٩٥٩ .. واسعد حسني في « العالم العربي » ـ بالقاهرة ـ ابريل ١٩٥٤ .. وعباس محمود العقاد ـ الاخبار ١٩٥٤ .. وكامل السوافيري ـ الاهرام ٩ ـ ٤ ـ ١٩٥٤ .. وفي حياته نشر اسعد حسني مقالة في «المجلة الجديدة» بالقاهرة ـ سبتمبر ١٩٣٥ .. ومحمد علي الطاهر في الكفاح الفلسطينية ديسمبر ١٩٣٥ « وكان قد بلغه نعي الحداد خطأ » . (٢) و (٤) حديث بمجلة « العالم العربي » ديسمبر ١٩٥٣ . (٣) كتاب « يعقوب صروف » لفؤاد صروف ـ ١٩٦٠ بيروت. (٥) مجلة « الهلال » ـ ابريل ١٩٤٠ ص ٦٦٥ . (x) تجدر الاشارة هنا الى ان نقولا الحداد نشر الكثير من ابحاثه ومقالاته في مجلة «الاديب» في السنوات الاخيرة من حياته . (الاديب)

والزواج واختيار الزوج والزوجة ، والاسرة .. الخ .. وجمع الكتاب بين الدراسات التاريخية والاجتماعية والسيكولوجية في فصوله الثمانية وابوابها ..

وفي العام التالي (١٩٢٧) ظهر للحداد مؤلف ثان في موضوع الحب والزواج والاسرة سماه « ذكرا وانثى خلقهم » . ومما جاء في مقدمته : « بعد صدور كتابنا « الحب والزواج » لم يبق بد من العودة الى الموضوع من جهاته العملية ، فادرنا ابحاثنا في هذا الكتاب حول محور ارشاد الناشئة الى الصراط المستقيم المؤدي الى الحياة الزوجية التي لا حياة سعيدة للانسان سواها .. » وفيه بحث المؤلف في الغاية القصوى من الحياة ، ومعنى الزواج من الوجهات البيولوجية والاجتماعية ، كما بحث في حياتنا الجسمانية والعقلية والاقتصادية والروحانية .. وفي الزواج ومحاذيره ، والموبقات الموروثة ، وانتخاب الالف ، والعقائد والتقاليد وغيرها ..

كما دفعه التوسع في النواحي العلمية للزواج الى ترجمة كتاب الطبيبة ماري ستوبس والتعليق والاضافة اليه وسماه : « اسرار الحياة الزوجية » هادفا دائما الى السعادة الزوجية وتوثيق روابط الاسرة ..

ولم يقتصر اهتمام الحداد على التوجيه والارشاد والبحث عن سعادة المجتمع المحدود ، بل شملت نظرته سعادة المجتمع البشري عامة. فكتب المقالات عن السلام العالمي ، ونبذ الحروب ونزع السلاح ، والغاء الاستعمار والعدوان ، والحكومة العالمية الممثلة في تجربة عصبة الامم الاولى ، وفي استخدام العلم والمكتشفات العلمية من اجل سعادة الانسانية وتمدنها . ومن امثلة تلك المقالات : « السلام الابدي وعلى اي قاعدة يقوم ؟ » (الهلال ١ ـ ٦ ـ ١٩٤٠) ، و « التطبيق العملي لمشروع السلام الدائم » (الهلال ١ ـ ٧ ـ ١٩٤٠) ، و « النظريات السياسية في عهد الرشيد والعهد الحاضر » (الهلال ١ ـ ١٠ ـ ١٩٤٠) ، ومقالاته العلمية وقصصه الرمزية والفلسفية في المقتطف .. وكلها تضمر غايات انسانية تدور حول تقدم المجتمع البشري وسعادته وامنه .

ومن اجل قضية السلام ونبذ الاستعمار وبخاصة في الشرق العربي ، درس نقولا الحداد قضية فلسطين وصلتها بالصهيونية العالمية، وتتبع تاريخ القضية منذ القديم ، ثم اخذ ينشر بمجلة « الرسالة » بالقاهرة ، المقالات المتتابعة التي اربت على الاربعين مقالة ـ فيما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ شرح فيها اهداف الصهيونية ومطامعها في العالم العربي ، وحث فيها الامة العربية على مواصلة الكفاح في عزم وحزم لاسترداد حقهم وارضهم .. كما كتب في المقتطف (ديسمبر ١٩٤٩) مقالة بعنوان « حجة فلسطين من ذا كتبها لليهود ؟ » وفي مجلات اخرى مما يجتمع منه كتاب تاريخي علمي قومي عن هذه القضية الكبرى، لا نظنه قد جمع ونشر في مجلد بعد .. وكان قد ترك قبيل وفاته مخطوطا كبيرا عنها لا شك انه كان يعده للطبع . .

الباحث العلمي

والى جانب المقالات العلمية التي نشرها نقولا الحداد في المجلات ـ وبخاصة في مجلتي المقتطف والهلال ـ ظهر له عدد من المؤلفات العلمية التي حاول فيها تبسيط العلوم وبث الروح العلمية ، ومن ذلك كتبه عن « هندسة الكون حسب ناموس النسبية » .. و « عالم الذرة او الطاقة الذرية » (ملحق بالمقتطف اغسطس ١٩٤٨) .. و « فلسفة التفاحة او جاذبية نيوتن » .. و « نظريات العلوم الطبيعية الجديدة » (وكان معدا للطبع عند وفاته) ..

ومن مؤلفاته التي جمعت بين العلم والفلسفة : « فلسفة الوجود» (الحق بالمقتطف يناير وفبراير ١٩٥٠) ، و «العزلة في رأس الجبل» (حوار في فلسفة الاخلاق ـ في قالب قصة ـ الحق بالمقتطف يناير وفبراير ١٩٥٠) و«علم ادب النفس » .. و « ليت الشباب يعود » فلسفات في قصة .. و « الديمقراطية مسيرها ومصيرها » ـ (وكان قد اعلن عن قرب ظهور هذين الاخيرين) ..

فقد كانت نزعته العلمية متغلبة على مواهبه الادبية ، بل على منظوماته الشعرية .. وكان بالمهنة كما سلف صيدليا كيماويا ولكنه كان ينساق الى البحث في نظريات التطور والنسبية والذرة والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية وكذلك الى علم الاجتماع ، وعلم النفس ، والتاريخ والفلسفة ..

وفي كلمة للمرحوم عباس محمود العقاد عن نقولا الحداد ـ عقب وفاته ١٩٥٤ ـ يقول : « .. واحق ما كان حين نذكر اينشتين ، وفي الاسبوع الذي يحتفلون فيه بميلاده الخامس والسبعين لان اللغة العربية لم تشتمل كتابا في « مذهب النسبية » اوفى من كتاب الفقيد الذي سماه « هندسة الكون» . ويصدق عليه غير ذلك انه يضارع خير الكتب في لغة من اللغات عن مذهب اينشتين من الوجهة العامة . وكتاب « نقولا الحداد » احق بالتنويه والتقدير لسبب آخر نقربه مثلا للشبان المتعطلين الى المعرفة والدراسة . فان الحداد لم يتعلم في صباه دروس الرياضة العالية ، ولكنه لما قرا عن « النسبية » لم يقنع بمطالعات التبسيط والتقريب وفرض على نفسه وعقله ان ينقطع زمنا لدرس رياضاتها بعد ان قارب الخمسين . ثم تعمق في الاستقصاء فاطلع على مراجعه الخاصة ونفذ الى اسرارها وخرج منها بزبدة صالحة لتاليف هذا الكتاب الذي لا يزيد على قدره ذرة حين نقول عنه انه اوفى المراجع باللغة العربية وانه يضارع امثاله بجميع اللغات .. »

وكان من رأي الحداد ان « للعلم لغة خاصة به لا يمكن ان تتصرف بها امة من الامم بمقتضى قواعد لغتها ومعجمها . فلغة العلم ليست انجليزية ولا فرنسية ولا المانية الخ حتى يمكن ان تكون عربية ايضا بل هي لغة قائمة بنفسها ـ لغة العلم ـ يجب ان تستوعبها اي لغة كما هي ان كانت تستطيع ان تلين لها وتخضع لاحكامها ... »

وضرب امثلة بالفاظ الراديوم والهليوم والبلهارسيا (نسبة الى مكتشفها بلهارس) ، وغيرها .. فانه « يمكنك ان تضع ما تشاء من الالفاظ العربية لكل لفظة اجنبية من الاصطلاحات العلمية والفنية التي نحن بصددها بل يمكنك ان ترتجل لها من الالفاظ ما تشاء ارتجالا من غير تعمل النحت ومن غير اعتبار للاشتراك بين اللفظتين في المعنى ، ولو كان هذا العمل يستغرق قرنا او قرونا . فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة ـ كما يرى الحداد ـ احد امرين : « اما ان نكون قد اقمنا حجابا بيننا وبين الاجانب (في العلم) فلا تبقى صلة لثقافتنا بثقافتهم .. ولا نعود ندري بما يستجد عندهم من التطورات العلمية ولا هم يدرون بما يستجد منها عندنا .. واما اننا نضطر ان نتعلم احدى اللغات الاجنبية الاكثر شيوعا والاغنى علما لكي نطلع فيها على العلوم الحديثة ـ يعني اننا ندرس العلوم فيها مع دراستنا لها بلغتنا ـ لكي نبقى على اتصال بالثقافة العالمية العامة .. وهذا يضطرنا ان نضاعف مجهودنا في تحصيل العلم بلغتين .. وان نستذكر لكل حقيقة علمية او فنية لفظتين احدهما عربي والآخر افرنجي .. »

وكان نقولا الحداد ينظم الشعر ايضا ، وله منظومات كثيرة ، ويبدو انه كان يتخذ القصيدة وسيلة اخرى ، كالقصة والمقالة في التعبير عن آرائه الاجتماعية والعلمية .

.. وبعد فهذه ذكريات عن كاتب عالم معلم ، افنى حياته في الكتابة الهادفة وكانت له مبادئه ورسالته ، لخدمة بلاده ونفع امته .. وعانى كثيرا من اجل تحرره الفكري وصراحته .. ولم يتكسب من قلمه ولم يثر من علمه .. وما زالت له مؤلفات مخطوطة لم تطبع ، ومقالات منشورة لم تجمع .. فلعل ناقدا باحثا من الجيل الجديد يتوفر على حصر تراث هذا الكاتب من قصص وابحاث ونقدات ، ويعيد نشره مبوبا منسقا في مجموعات مترابطة الموضوع .

الاسكندرية — نقولا يوسف



شواء الذرة

* * *

نار تلاطم غربها المتوقد ... متدفقا بجوائح لا تنفد
عصفت مصفقة الشراع وزغردت ... في موقد من حرها يتنهد
ترمي بمنهمر الشرار ومثلها ... نار الاسى دون الحشا تتجدد
قد تخمد النيران الا جذوة ... لحزازة من لاعج لا يخمد
ومسعر النيران من حرق الجوى ... أنفاسه من وهجها تتصعد
من شامه في جنح ليل واللظى ... من دونه مشبوبة تتمرد
ألفى به دهقان فارس قائما ... في ليله متبتلا يتعبد
وكأنما العرناس دون يمينه ... قنديل نور او شهاب مرصد
خفقت ذؤابته كخفق فراشة ... في عاصف لا تستكين وتخلد
واسترسلت منسابة كضفيرة ... دون الترائب لا تني تتأود
وتجمعت حبب كحبات الندى ... او كالدموع بوجنة تستطرد
نثرت على العرناس وانتظمت به ... كلآلىء بقلادة تتوقد
او انها زبد المحيط تكثبت ... في جنح أفق ليله متلبد
وترى ازاء النار مضرم جمرها ... من وقدها ولهيبها يتشهد
ما تأتلي يمناه دون شوائه ... ممدودة وكأنها تسترفد
ويدير عينا بالضنى مكحولة ... في موقد اوداجه تتورد

عاينته والنار تلفح وجهه ... بجوائح من جمرها وتزغرد
شرر تناثر دونه متطايرا ... من دونه عين المنية ترصد
صحب الاذى دهرا لتسعد صبية ... من دونها ريب الاذى يتوعد
واها له ما كان أوجع عيشه ... وأمر مورده الذي يسترفد
لقم بشوب مرارة ممزوجة ... ولواعج مشبوبة لا تخمد

دمشق

عدنان مردم بك





بقلم جهاد الكاتب

كانت عينا الطبيب المنحني فوقي جامدتين .. وعيناي ترتجفان ، وقلبي يخفق اكثر .. اشعر بانقباض يجعلني ارتعش ، فانا لا زلت اخاف كل امتحان .. كشفت عن صدري وانا ممدد على السرير الابيض ، وراحت سماعة الطبيب تتجول فوقه ، تبحث عن شيء . حاولت الا تصدم نظراتي ملامح الطبيب الفارغة المستهترة . وكانت نظرات الممرضة تفتش هي الاخرى عن شيء ضاع على صدري

المروحة المعلقة تلبس جلبابا من الغبار .. وشريط الجرس الكهربائي المحاذي لسريري متآكل .. وكل ما حولي يضايقني ، يثير في نفسي الضجر والقرف. حتى ستار النافذة القاتم يضع ثقلا فوق صدري ،انه مسدل دوما ، وكلما حاولت ازاحته تهرع الممرضة لتسدله ، واثور .. ان الشمس لا تدخل هذه الغرفة المبللة بالسأم .

منذ خمسة ايام وانا حبيس هذه الغرفة .. حبيس الاوهام والاحلام والذكريات . في صباح كل يوم في حوالي الساعة التاسعة والنصف يفتح باب الغرفة بعنف ليدخل الطبيب تتبعه الممرضة ، ودون تحية ما ، يبادرني بلهجة جافة :

ــ الم تتحسن ؟

واجيب بصوت جرحته الوحدة والانفراد :

ــ احسن ..

ــ اكشف عن صدرك .

اتمدد على السرير بتثاقل وملل واكشف عن صدري لتمتد اليه السماعة تعبث به .. تحصي دقات قلبي وتراقب الهواء الذي ابتلعه . وتمر فترة صمت احسبها اعواما .. صمت مشوب بالقلق والانتظار ... لا يمكن ان يشيخ قلبي بمثل هذه السرعة . لم لا يسألني شيئا ، انني اعرف نفسي اكثر من اي مخلوق كان . وعندما اراقب عينيه الصامتتين اتوهم اشياء اسمعها ولكنني لا اقدر على فهمها . يلتفت الى الممرضة وهو ينتشل السماعة ويجمعها بين يديه :

ــ فحص دم .

وتوضح الممرضة في الحال :

ــ يوم امس فحص الدم والبول .

وتناوله ملفا مكونا من عدة اوراق .. يقلبها كطفل يفتش عن صور ملونة .

ــ اذن .. صورة صدر .

واضحك مع نفسي .. كل ما كنت اشعر به هو صداع حاد لزمه اعياء بسيط انتابني اثناء العمل المرهق سببه فقر الدم .. فالتعب المستمر والغذاء الناقص ومشاغل الحياة لا بد ان تسقط اي فارس عن صهوته . وكم حاولت ان ابين للطبيب ان جسمي قوي ، بل ادعيت انني امارس الرياضة منذ زمن ، ولكنه اصر على ان يبقي غذائي مجموعة من السوائل فقط .

واليوم ضاقت نفسي بهذه الحياة .. بهذه الزنزانة ، وعندما هم الطبيب بالخروج دون ان يقول حرفا صحت :

ــ اريد ان اخرج من هنا ..

التفت الي .. وبدت عيناه تتراقصان على صفحة وجهي، قرات فيهما السخرية ، وتمنيت ان يقول اي شيء ، ولكنه اكتفى بأن رفع كفه الى وجهه وكانه يدفع عنه ذبابا، وخرج وهو يتحاشى النظر الى المفسلة الصفراء القاعدة قرب الباب.

ثم لحقت به الممرضة وبيديها الملف، بعد ان ارتني أسنانها التي امتص جمالها دخان السجائر . قمت في الحال وازحت الستار بقوة، فمزقت قسما علويا منه . ووقفت امام زجاج النافذة اتأمل الحياة في البناء المقابل ، ولم يكن سوى امرأة عجوز تجلس في شرفتها العتيقة التي تكسوها اشعة الشمس .. وكان حولها طفل صغير يلهو .. وما لبث باب الشرفة ان انفتح ببطء وخرجت صبية سمراء صغيرة . ويبدو انها لمحتني فقد تعودت ان ترى الستار يخفي كل شيء فحملت طفلها بين يديها واسندت ظهرها على حافة الشرفة .. لماذا لايكون لي بيت وطفل حلو تنجبه لي امل .. لماذا اظل اكبر وتظل احلامي صغيرة.. وفجأة هزني صوت الممرضة الناعم :

ــ لم ازحت الستار ؟

ــ اريد ان ارى النور ..

ــ الطبيب يريده مسدلا دوما .

اسدلت الستار ، وحاولت ان تدفعني نحو سريري بهدوء ، وهي تستجدي الابتسام ، ولكنني صرخت وكأني افتقدت شيئا عزيزا :

ــ الى متى يظل مسدلا ؟ هل تحبين العتمة مثل الطبيب ؟

رميت نفسي على السرير ، وبدا قد تحطم ، وتعانقت كفاي تحت رأسي .

ــ كل شيء هنا مقرف ..

وضعت الممرضة يدها على كتفي، وبلهجة عتاب قالت :

ــ كل شيء ؟!

ازحت يدها عن كتفي :

ــ انت تعرفين انني لا اتشكى من شيء .

ــ غدا تخرج ..

اصبح الغد حلما بعيدا ، وهذا السكون المميت الذي ينساب في

ردهات المستشفى وغرفها يقبض قلبي . انني لا افعل شيئا هنا ، ولا يفعلون لي شيئا . لم تبق قصاصة مطبوعة عثرت عليها في المستشفى الا قرأتها مهما كانت تافهة . رموش النساء الصناعية ، المناقصات الحكومية ، حرب الفيتنام ، واخر الازياء .. وحاولت أن امضي وقتي في الكتابة ، ولكنني كنت اقف عند وضع العنوان لامزق الورقة واكتب عوانا جديدا ، دون ان اخط سطرا. واسمع بين حين واخر اصواتا محشرجة .. امل لن تكون لك ابدا. واعجب كيف انني لا استطيع الكتابة عن نفسي . قلت للمرضة وانا انتفض لاجلس على حافة السرير وامسكها بيدي :

ـ الا يمكن ان اخرج اليوم ؟

ادارت ظهرها وتظاهرت بأنها تقرأ علبة دواء اخرجتها من جيبها .. ثم اجابت :

ـ يبدو انك مللتنا .. .

وراحت تقنعني انني القى الراحة وامتصها في هذه الفرفة . ولكنني مللتها ، سئمت من ملازمة المرضة الدائمة لي ، وكرهت رعايتها لي كطفل .. مللت الطبيب وسماعته الخبيثة التي لا عمل لها سوى قهر صدري . قفزت الى المرآة المثبتة فوق المغسلة .. تفرست وجهي .. لحيتي التي استطالت ، وتحسست خدي بكفي .. كشرت عن اسناني ، وشمرت بأصبعي طرف عيني ، وقربتها من المرآة ، وقلت :

ـ انظري .. الا يوجد اصفرار في عيني ؟

اقتربت مني ، وحاولت ان تمرر شعرها الفاحم قرب شفتي ، فانسابت الى انفي رائحة عطر ثقيل .. شعرت بالقرف وهي تمد اصبعها ذا الظفر الطويل الى جانب عيني . قالت بعد صمت :

ـ انت واهم ..

نظرت مرة اخرى الى المرآة ... انني انسان اخر ، سقطت البسمة عن شفته ، وتصاعدت اوهامه ومخاوفه وتاملاته الفارغة . انني حزين لانني اهدر ايامي في حساب مساحة الفرفة وتخمين ارتفاعها وعمر بنائها .

تباطأت الى سريري بعد ان تناولت مجلة ممزقة الغلاف والجوانب .. قلبتها ، لم أجد صورة واحدة ... او كلمة واحدة ، كانت الاوراق صفراء تنبثق منها ديدان تتراقص .. تسخر مني ، ورأيت اشباحا سوداء تتعارك ، وسمعت طنينا حادا .. لن تكون لك .. انت لاتملك شيئا ، وتشققت الجدران عن ضحكات عميقة .. عميقة . الاخلاق اسطورة .. اسطورة ايها الواهم . واحسست أن اصبعا حديدية تضرب صدغي مرات . تذكرت ان ابكي .. فالبكاء هو الشيء الوحيد الذي يمارسه الانسان دون ان يؤذي احدا. اخرجت من تحت الوسادة صورة امل ، وهي كل ما استطيع ان امتلكه منها الان ، وضعتها بين كفي .. انا ادري انني في اوهام .. ادري انني بعيد عن اصطياد القمر بسنارة السمك .. بعيد عن اخفاء الشمس بنظارة سوداء ، ولكن ماذا افعل ؟.

كنت اشعر انني وحيد ، والصحراء تتسع يوما بعد يوم .. تلتف رمالها حول المجهول ، وتمنيت ان تشق حياتي ساقية غناء تخلق بقدرتها الخارقة دوحة فتانة ، تمنيت ان تصدح الطيور عند اقدام الساقية . ويوم التقيت بأمل وجدت نفسي في واحة وارفة انتشلتني بعد ان امتد السراب طويلا ، وزال صدأ الكره لمجتمع مريض يضع القيمة ، كل القيمة لمن يملك فقط . كنت لا اجد مبررا لائق بأحد .. كانت حياتي فارغة .. كانت الشمس تلهب ظهري ، وكان القمر الحزين يتوارى بعيدا عن ناظري ليخفي دموعه .. كنت اؤمن انني صياد فاشل ، فلا أنا احسنت صنع شباكي ، ولا البحيرة احسنت توزيع السمك . وفجأة بدأت اصمد امام الشمس .. ولمحت عيناي بسمة على شفتي القمر ، وابصرت من بعيد الشاطىء الطروب تضحك قلاعه لي.

في مساء ذلك اليوم الذي جمعني التصادف بأمل ظللت طوال الليل اسائل نفسي ، اين رايتها قبل الان؟ ان قصص الحب التي ادمنتها وانا صبي مراهق ، كنت اعتقدها نوعا من خيالات لا وجود لها .. لذا كان الخيال يشتط بي فأتمنى ان تصدمني سيارة صغيرة لافيق بعدها واجد بجانبي فتاة جميلة تمسح جبيني وشفتي بأناملها . في تلك الليلة وانا اغمض عيني على صورة وجهها احسست بأن ما كنت اعتقده خيالا يمكن ان يصبح حقيقة ، ولم اتعب نفسي في معرفة نوع هذه الحقيقة، وادركت بعدها انها اقدس واصدق علاقة بين الانسان واخيه .

هزتني المرضة :

ـ انت تبكي ؟!

ان المثل التي اعتنقتها .. وجعلتها طريقا لي في هذه الحياة تحتضر بين يدي دون ان اصنع لها شيئا . تذكرت قول صديق لي .. عليك ان تعيش ، ان تسبح ، ولا تجلس على الشاطىء ترقب السابحين وتنتقدهم، فلعل احدا يدفعك من ورائك .. ولا بأس ان تسبح مع ذلك وان تصمد ، حتى ولو احسست بملوحة المياه الداخلة الى فمك . هذه الكلمات جعلتني أؤمن ان كل ما ادخره لهذه الحياة لا يمكن ان يعطيني الحياة ، وايقنت ان ما تعلمته من الكتب وما وجدته بذورا صغيرة في نفسي لا يمكن ان يقاوم ويقف امام ما يريده الناس ، الواحد منهم يظل لابسا ثياب الاخلاق ، يتزين بها ، واذ تصبح الاخلاق حقيقة يفر منها ، ويبدل ثيابه ..

عندما لمحت المرضة الصورة بين يدي ، حاولت ان تسترق النظر اليها . قالت :

ـ هل تحبها ؟

لا يدوم النصر للمغتصب

ايقظت روح الاسى في شاعر ... نكبة حلت بقومي النجب
فانثنى يبكي زمانا غابرا ... يوم كان المجد ملك العرب
عصف الخلق بهم فاصطرعوا ... واضاعوا عمرهم في لعب
اشبهوا الشمس علاء وسنى ... وجلال الحق عبر الشهب
وعبيد السوط كانوا هزأة ... للبرايا من قديم الحقب
ما عدا مما بدا حتى غدوا ... في ديار العرب اصل النوب
احرزوا بالخبث نصرا عاجلا ... ورمونا بالمقيم المنصب
واستباحوا القدس في اقداسها ... لم يراعوا عهد عيسى والنبي
فظعوا تفظيعهم في امة ... حرة المحسر مجلي الادب
مثلة لم يسمع الدهر بها ... ومآس صدعت قلب الابي
لاجىء يدفع فيها لاجئا ... وجريح هائم في سبسب
وشهيد جاد ارضيها دما ... قد رشته ماضيات القضب
ولطيم ضائع في فدفد ... ويتيم فاقد عطف الاب
فاسكب الدمع على ارواحهم ... وابعث الشعر انينا وانحب
وبنو اسريل في اعيادهم ... تملأ الدنيا بعنف الصخب
يا بني صهيون لا تستكبروا ... نصركم زور الى منقلب
سوف نجليكم عن الدار غدا ... لا يدوم النصر للمغتصب

لاباز – بوليفيا ... جورج كعدي

كيف عرفت ؟ انني لم احك لها عن شيء خاص . نظرت اليها . هممت بطردها ، ولكنني تخاذلت . ماذا تعرف عن الحياة غير امتصاص نظرات المرضى من الشبان ، وسلب كلمات عذبة من افواههم ترضي بها انوثتها الهرمة ! قالت بعد ان قرأت في عيني كل شيء :

– لاول مرة أرى رجلا يبكي ..

خجلت ، على الرغم من انني اعرف انها كاذبة . واخفيت الصورة تحت الوسادة وضممت كفي على وجهي . ماذا اقول لها . انني لا ابكي . وهذه الدموع التي تبلل شفتي ! لم اشعر ان عيني تسقطان دمعا .. فشفتاي هما اللتان تبكيان . ومن الارض خرج صوت ثخين يهتف : « لن تكون لك ، فأنت لا تمتلك شيئا وغيرك يمتلك » .

ودارت مروحة السقف تنشر اصواتا كريهة « يا واهم .. انت لا تمتلك شيئا » وتشققت الجدران ، سقط الستار ، تكسر زجاج النافذة امتلأت الغرفة صخبا « انت مريض .. انت واهم .. اين وقودك ؟ الحياة تريد الوقود وانت لا تمتلك شيئا » .

كيف اتصورها بين احضان رجل اخر ! هذا بيع ، والانسان اقدس من كل الاوزان ، اقدس من كل بائع.

قلت للمرضة اريد ابعادها عني بعد ان جلست على حافة السرير :

– لعل احد المرضى بحاجة اليك .

اجابت وقد تشنجت اعصابها :

– اخترتك من بين كل المرضى .. وانت الان تطردني !

قلت بعصبية زائدة :

– ولم اخترتني انا ؟ ان وجهك يذكرني بصمت الطبيب الكريه ... كل المرضى يعرفون انك تلازمينني.

بدت وكأنها تغالب البكاء :

– وجهك يذكرني برجل كنت احبه ..

نهضت بتثاقل .. نظرت الي طويلا ، ورايت دموعها تبلل شفتيها القرمزيتين ، وقبل ان تنسحب من الغرفة قالت لي بصوت مكبوت :

– استرح الان قليلا ..

غمرت راسي باللحاف اريد النوم، وغرقت في ذكريات سعيدة . وعندما افقت، كانت الساعة الواحدة تقريبا ، فقفزت الى لوحة المريض المعلقة على حافة السرير وانتزعت اوراقها وقلبتها بسرعة ، فلم اعثر على خط جديد فيها . ضغطت باصبعي زر الجرس طويلا الى ان اندفعت الممرضة عبر الباب ، فتصنعت الهدوء وانا ارى وجهها الشاحب :

– هل خرج الطبيب ؟

– خرج منذ ربع الساعة .

– وانا ؟

– يمكنك ان تخرج الان ..

حلب ... جهاد الكاتب



الدكتور محمد رجب البيومي

فحول البلاغة عند البكري

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

اراد السيد ان يقدم للقراء مختارات جيدة مما قرأ في الشعر العربي ، فكان العصر العباسي مجال اختياره ، فانتقى من بين أعلامه ثمانية قال انهم من فحول الشعراء وائمة البلاغة وامراء الكلام ، وهم مسلم بن الوليد وابو نواس وابو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي والمعري شاعرا وناثرا ، ثم اصطفى ما راقه من آثارهم ، وشرح ما احتاج الى شرح في رأيه ، وجعل من ذلك كله كتابه المسمى بفحول البلاغة ، وقد قال في مقدمته بعد ان ذكر اسماء من رضى عنهم من الشعراء .

« وقد جعلنا في اثناء هذا الكتاب اشياء من ملح ما اخترناه لغير اولئك الفحول من الشعراء المحدثين فأصبح الكتاب بحمد الله خزانة جمع فيها كل معنى مخترع ولفظ شريف وقافية بليغة وكان مثله في كتب الادب مثل النقطة الواحدة من العطر فهي وان صغر حجمها محصل جملة كثيرة من الزهر ! »

ولكي ننصف هذا الكتاب يجب ان ننظر الى ظروفه وبيئته ، والوقت الذي استفرقه السيد في جمعه وشرحه ، وقدرات المؤلف العقلية حين خرج على الناس بكتابه ، لان مراعاة ذلك تكفيه بعض النقد المتشدد ، وتضعه موضعه العادل دون تحيف وانتقاص !

لقد تولى المؤلف مشيخة الطرق في الثانية والعشرين وكان حديث العهد باجازة الشيخ الانبابي العلمية ، ونظر فوجد الاضواء تتسلط عليه بما نال من اوسمة والقاب ، وكان في نفسه طموح وتطلع فعمل بعد اشهر قليلة على تأليف المجمع اللغوي الاول . وتقدم اليه بثلاثة من البحوث اللغوية والادبية أفرغ فيها جهده وطاقته ، حتى وطد مكانته الادبية في عيون الناس لتساوق مكانته الرسمية في عالم المناصب والالقاب ، واذا كان المجمع قد انهى جلساته في اوائل عام ١٨٩٣ فان السيد قد والى البحث الادبي يحثه شغفه بالدراسة وتقوده موهبته الفكرية حتى خرج على الناس في منتصف عام ١٨٩٥ بكتابين ادبيين هما اراجيز العرب وفحول البلاغة ! ومعنى ذلك انه جمع الكتابين وشرحهما معا في اقل من عامين ونصف ! واذا كان شرح الاراجيز يتطلب من دقيق البحث ، وجميل الصبر وقوة الجلد على مشاق العويص الحوشي من القول والنافر المستوعر من الاسلوب فان ما بذل فيه من الوقت يعدل اضعاف ما بذل في فحول البلاغة بحيث يجوز لنا ان نحكم في اطمئنان ان ربع الزمن الذي حددناه لتأليف الكتابين كان من نصيب فحول البلاغة اما الجزء الاعظم فقد ادخر للاراجيز !

وقد كان استقبال النقد لكتاب الفحول ارق بشاشة واعظم ثناء ، واطيب حديثا ، اما الاراجيز فقد تعاورتها السهام من جهات كثيرة ، على اني وقعت من كتاب الاراجيز في حيرة ، فقد قراته قبل ان اقرا فصول ناقديه ، فكونت فيه رايا رايته الصواب ، ثم عمدت الى ما كتبه عنه الاستاذ المويلحي فرايت من توارد الخواطر ما يدل على وقوع الحافر على الحافر كما يقال ، وقد آثرت ان اترك للرجل ما قال وان اعرض رايه مكتفيا بالتعليق ، كيلا يظن احد اني سطوت على آرائه ، وهي تضحية تجرعتها صابرا وادخرها عند الله !

اما كتاب الفحول فلم ار من تعرض اليه بتحليل مسهب ، لذلك حمدت الله ان خلا لي الجو فأقول ما اريد دون ايجاس .

يرى القارىء ان السيد قد اغفل بشارا في اختياره وكان الظن بمن اختار اشعار مسلم وابي نواس الا يهمل اول الثلاثة ، فاذا كان قد تركه لان ديوانه اذ ذاك لم يكن رأى النور ، فان دواوين ابن الرومي والبحتري وابي تمام ومسلم كانت كذلك في سنة١٨٩٥ وهي السنة التي ظهر فيها فحول البلاغة لم تعرف المطبعة ، وانما اختار السيد لهم مما حوته كتب الادب ، وامهات المصادر القديمة ، واغفال بشار لدى من يعرف اسباب التفضيل الادبي عند السيد مستغرب عجيب ولا كذلك ابو العتاهية ، فبشار قوي الجرس حسن التشبيه رصين الاسلوب ، وذلك ما يعجب به المؤلف ، أما ابو العتاهية فان سهولته وانقباضه النفسي ويسر حديثه في اكثر

ما نظم مما لا يدفع السيد الى الترحيب به ! فاهمال بشار في كتاب يصطفي المشاهير من فحول البلاغة في العصر العباسي مما يلفت النظر ، وكنت ارجح ان يختار السيد كذلك نماذج من اشعار الشريف الرضي يضعها بين ما اختير للمتنبي وابي العلاء ، فالشريف مع كثرة اغراضه ورقة وجدانه ورصانة اسلوبه ، يجتمع مع السيد في اواصر النسب العلوي من ناحية الام ، وقد ترجم له ترجمة مادحة في (بيت الصديق) فاغفال اختياره في كتاب الفحول كذلك امر عجيب ! على ان في الاهتمام بالمشاهير واغفال الاغمار استقراطية تنزه عنها ابو تمام وابحتري في حماسيتهما ، وكان على السيد ان يحذو حذوهما اذ ان الفضل لا يقتصر على افراد دون افراد .

ولم يختر السيد من البيان النثري الا لابي العلاء وحده فقد افرد لنثره نحو تسعين صفحة من كتاب الفحول ، وهو امر اشد غرابة ، لان المظنون بالبكري ان يختار لامثال ابن العميد والخوارزمي والهمذاني والصاحب والحريري ممن ينهج نهجهم في اسلوبه الادبي ! اما ان يكون ابو العلاء وحده صاحب الحظوة برسائله الخمس التي قدمها السيد فمما يدل على انه كان من الحرص على ظهور الكتاب في وقت عاجل بحيث لم ينبسط له وقت كاف لدراسة نماذج هؤلاء واختيار ما يروق ! ولسنا نعني بذلك انه لم يطلع على روائعهم قبل اصدار الفحول ، فان اسلوبه الكتابي ينبيء عن انه تملأ من آثارهم تملؤا كبيرا ، ولكن القراءة للاستفادة والاحتذاء غير القراءة للترشيح والانتخاب ! على ان ما اختاره للمعري ليس من اجود ما كتب ابو العلاء معنى وموضوعا، فالرسالتان الاوليان مدح مفرق لوزير يتجر بالمؤامرات السياسية وهو ابو القاسم المغربي وقد وصفه مؤرخوه بالحقد والكيد والعقوق وقال عنه ابن القارح في نقد مقذع « كم دم سفك وحريم انتهك ، وحرة ارمل وصبي ايتم ، سلب الكعبة ذهبها وفضتها ، وانهب العرب الرملة وخرب بغداد (١) » ولكنه في رسائل ابي العلاء المختارة صاحب الشرف الذي لا يتطاول والمجد الذي لا ينال ، وقد اقام بمعرة النعمان زمانا ثم رحل فكانت بعد رحيله « كقسيمة الوسيمة ذهب عطرها وبقي نشرها ، وانما شرفت على ما سواها ، وطالت عن البلاد دون ما والاها لاقامته بها في تلك الايام ، وانامته عن اهلها نواظر ازام فعرفت عند ذلك به وانما المنازل التي ينزلها كالشهب الشآمية واليمانية ، الموفية على العشرين بثمانية نزل بها الزبرقان فاشتهرت ، ونسبت العرب اليها كل سحابة امطرت .. ولقد سمونا بمجاورته قبل مجاورته سمو اليثربي بجوار النبي (٢) .. الخ »

والرسائل الثلاث الاخريات تنحو هذا المنحى من الاغراق والاغراب حتى ان المعري قد اضطر في الرسالة الخامسة ان يعتذر عن مبالغته في الثناء المغرق حين لامه في ذلك مراسله فذكر انه يمدح من صاحبه فلا بد ان يقابل المدح بأمداح « واما الفصل في ترتيب الخطاب فلا غرو لمن نزل الي درجات ان ارتفع اليه درجة ، ولمن سلك نحوي الشبهات ان اسلك نحوه المحجة ، وذلك فعل مدل ، وجهد مقل ، فانا حينئذ كمن قام ليتلقى الغمام شوقا الى عذب ماء قطع اليه ما بين الارض والسماء (٣) واذا كان لا بد في راي السيد من الاختيار النثري لابي العلاء فأحر به ان يختار من رسالة الغفران وقد كانت اذ ذاك ذائعة الصيت مشهورة طبعها اليازجي وقدم لها اما ان تكون هذه الرسائل الخمس وحدها هي كل ما اختاره المصنف من النثر الادبي فأمر جانبه التوفيق ، ولعل هذه المختارات النثرية بالذات هي التي دفعت الاستاذ المويلحي ان يقول عن فحول البلاغة في خاتمة نقده للاراجيز :

« وقد تسلى المقتطف عن هذا الكتاب عند كلامه عليه بكتاب فحول البلاغة للمؤلف نفسه ، اما نحن فقد عزتنا هذه التسلية وفقدناها لان الكتاب المذكور لم يبق له اثر في ايدي الناس فقد اعدم بعد وجوده (٤) » وهو قول لا يخلو من الشطط ، فالكتاب لم يعدم ولكنه ذاع وازدهر .

اما ترتيب الشعراء في الفحول فالنظرة الاولى توحي بان المؤلف قد راعى الترتيب الزمني في التقديم والتأخير ، ولكن الذي يعلم ان مسلم بن الوليد قد مات بعد ابي نواس وان ابن الرومي قد مات بعد ابي تمام يرى ان يجيء بالترتيب الزمني هكذا : ابو نواس فمسلم فأبو تمام فابن الرومي فالبحتري فابن المعتز فالمتنبي فأبو العلاء ! ولكن السيد قدم مسلما على ابن هانيء والبحتري على ابن الرومي مخالفا بذلك منطق الزمن ! وهذه مسألة ليست جوهرية ولكن الاشارة اليها تفيد اما المسألة الجوهرية حقا فهي اهتمام المؤلف في اختياره بما يحفل بالصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، حتى ليسقط من الابيات المتماسكة ذات الغرض الواحد بيتا او ابياتا تخلو من الوان البيان غير عابيء بترابط المعاني، وتسلسل الافكار ، وقد تكون القصيدة جيدة فلا يختار منها غير بيت او بيتين يظهر فيهما التشبيه بوضوح ودليلنا على ذلك اختياره هذه الابيات منفردة دون نظر الى صلتها بقصائدها :

وعجت باعناق المطى كانها — هياكل رهبان عليها الصوامع ص ١٠١
وجاءت به أم من السود أنجبت — كليلة سر أنجبت بهلال ص ١٠١
لا يعجبن مضيما حسن بزته — وهل يروق دفينا جودة الكفن ص ١١٦
سقاك وحيانا بك الله انما — على العيس نور والخدود كمائمه ص ١١٩
حتى بدا الفجر به حمرة — كصارم غير منه الدم ص ١٥٢

اما اختياره البيتين فقط لذات التشبيه فما اكثره ومنه :

ولي صارم فيه المنايا كوامن   فما ينتضي الا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه   بقية غيم رق دون سماء ص ٩٢
وعاط اخاك عاتقه   بقار المدن مشتمله
تراها حين تبز لها   كجمر المدن مشتعله ص ٩٠
وفتيان سروا والليل داج   وضوء الصبح متهم الطلوع
كأن بزاتهم أمراء جيش   على أكتافهم صدأ الدروع ص ٩١
فدونكه موشى نمنمته   وحاكته الانامل اي حوك
يشكل يؤمن الاشكال فيه   كأن سطوره أغصان شوك ص ٩٧
وسيوف كأنها حين سلت   ورق هزه سقوط قطار
ودروع كأنها شمط جعد   دهين تضل فيه المدارى ص١٠٥
والبرق يخطف من خلال سحابه   خطف الفؤاد لموعد من زائر
والغيث منهل يسح كأنه   دمع المودع أثر الف سائر ص١٠٧

وتتبع ذلك مما تضيق به الصفحات ، وهو يدل على ان الصور البيانية في نظر السيد ذات تقدير كبير ترتفع القصيدة بها او تنخفض لامتناعها ، واذا كانت الصور البيانية مما يبرز الانفعال العاطفي ، ويسعف الشاعر بنقل خواطره نقلا حارا يلمس موضع التأثير من قارئه فانها لا تؤدي رسالتها الشعرية اذا انفصلت هكذا عن سياقها ، وقدمت للقراء مبتورة وكأنها قصدت لذاتها كتطبيق بلاغي مجرد ! ونحن نرحب بالاستشهاد بالبيت المفرد او البيتين اذا دل كلاهما على حكمة صادقة او ذهب مذهب المثل في الاستدلال اما ان نختار للشاعر بيتا واحدا من قصيدة لانه يحمل تشبيها حسيا قد يكون من المكرر المعاد فهذا ما لا يجوز أن يكون في كتاب يجمع المختارات الشعرية ، وقد يهون هذا الابتسار المخل في المصنفات الخاصة بعلوم المعاني والبيان والبديع ولكنه في كتب النصوص الادبية جلل خطير !

على ان غرام السيد بهذه الالوان البلاغية يجعله في كثير من الاحيان يختصر القول قبل تمامه فتبدو المقطوعة كقصة ذات فصلين لم يعرض منها غير فصل واحد بل يأتي لحادثة خاصة حرص الشاعر على استيعابها وبيان نتائجها فيكتفي منها بما يحير القارىء ويتركه متسائلا عن شيء يفتقده ولا يدريه ! وكأنه ظامىء نزع الكوب من فمه فجأة دون ان يبلغ مأربه من الري، فهو يتطلع الى الماء المنتزع متلهفا الى معاودة الارتشاف ، لقد رأى ان يعرض وصف البحتري للذئب فاكتفى بقوله ص ٤٧ :

واطلس ملء العين يحمل زوره   وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره   ومتن كمتن القوس اعوج متاد
طواه الطوى حتى استمر مريره   فما فيه الا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا في اسرتها الردى   كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما بي وبي من شدة الجوع ما به   ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا به ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم اقعى فارتجزت فهجته   فاقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فاوجزته خرقاء أضللت نصلها   بحيث يكون اللب والرعد والحقد

يكتفي السيد بهذه الابيات ويترك الذئب ليحير القارىء فيما كان ، ولعله اراد ان يضطره الى مراجعة ديوان البحتري ليقف على ما جاء بعد ذلك من قوله :

فخر وقد اوردته منهل الردى   على ظما لو انه عذب المورد

وقمت فجمعت الحصى فاشتويته   عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه ثم تركته   وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

وهذا مثال من امثلة تتخايل للقارىء في كثير من صفحات الكتاب ، ومنها ما يحار القارىء في تعليله فالسيد مثلا ينقل من نسيب المتنبي هذين البيتين ص١١٢

أتراها لكثرة العشاق   تحسب الدمع خلقة في المآقي
حلت دون المزار فاليوم لو زرت   لحال النحول دون العناق

ويترك بينهما هذا البيت الطريف :

أنت منا فتنت نفسك لكنك   عوفيت من ضنى واشتياق

وانا اسأل نفسي ايهما اولى بالذكر البيت المسطور « حلت دون المزار » على ذيوع معناه واستحالة وجوده ام البيت المتروك ومعناه الطريف ان المعشوقة ايضا من العشاق لكنها تعشق نفسها لا احدا غيرها ولذلك عوفيت من ضنى الحب وبرح الاشتياق ! ولكن السيد لم يرقه هذا المعنى فأسقطه وانتقل الى سواه ! ثم اتابع الكتاب فأرى نماذج كثيرة لاسقاط الجيد واختيار الضعيف فأحسب ان اختلاف الاذواق بين الناس هو الذي ملأ امهات المصادر الادبية بما لم نكن نأسى على فقده لو تبدد في زوايا النسيان .

اما شرح الابيات فلم يمض على منهج مجدد يوضح المشكل من كل بيت او يفسر الغامض من كل لفظ ، ولكن السيد في كثير مما كتبه يشرح ما يروق له وان كان واضحا ، ويغفل ما لا يروق وان كان غامضا ، وقد يوالي ابياتا كثيرة تتضمن العويص دون ان يشير الى شيء منه ، والعجيب حقا ان يكون البيت الواحد يتضمن لفظتين احداهما واضحة والاخرى غامضة فيشرح الواضح ويترك الغامض ، فاذا قال مسلم ص٧ في وصف المفازة :

عزوف بانفاس الرياح ابية   على الركب تستعصى على كل جلعد

شرح السيد معنى كلمة عزوف وترك كلمة جلعد .

واذا قال بعد ذلك ص ٨

تناولت اقصاها اليك ودونه   مقص لاعناق النجاء العمرد

شرح السيد كلمة مقص وترك كلمة العمرد .

واذا قال ابو نواس ص ٢٣ :

تخب بنا ادم المهارى وشيمها   على كل نشز متلئب وفدفد

شرح السيد النشز والفدفد وترك كلمة متلئب .

واذا قال البحتري في وصف الذئب ص ٤٧ :

يقضقض عصلا في اسرتها الردى   كقضقضة المقرور ارعده البرد

شرح السيد المقرور وترك اسرتها .

وهكذا يغفل الغامض دون اكتراث .

اما قصور الشرح عن ايفاء المراد فكثير ، نذكر منه على سبيل المثال قول مسلم في وصف الخمر ص٥ :

معتقة لا تشتكى وطء عاصر   حرورية في جوفها دمها يغلي

فقد قال السيد «وقوله حرورية شبهها في الشجاعة برجل حروري يغلي دمه ليفور » اما من هو الحروري والى اي الطوائف ينتسب وما اصل التسمية فذلك ما

لا تجده .

ومن امثلة القصور كذلك قوله في شرح هذا البيت ص ١١ عن الناقة :

شدنية رعت الحمى فأتت ملء الجبال كأنها قصر

فقد قال : الشدنيات من النوق منسوبة الى موضع باليمن ، وتشبيه الناقة بالقصر قديم قال عنترة :

فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدن لاقضي حاجة المتلوم

والفدن القصر .

ولم يكن المعنى في حاجة الى الاستشهاد ببيت عنترة قدر احتياجه الى شرح عبارة رعت الحمى اذ يترتب عليها ما بعدها من قول الشاعر فأتت ملء الجبال ومعنى هذه العبارة ان الناقة رعت ما يحمى من العشب الناضر ويمتنع على غيرها حتى ضخمت وسمنت فكانت ملء الجبال ، وبدون هذا الايضاح لا يتم المعنى ومن الاقتضاب المخل شرح هذين البيتين لابي تمام ص ٢٧ :

لا غرو ان فننان من عيدانه لقيا حماما للبرية آكلا
ان الاشاء اذا اصاب مشذب منه اتمهل ذرى وأث اسافلا

فقد قال السيد ما نصه : « يقول ان مات ابناك فسيزيد نسلك كالنخل الذي اذا شذب وقطع منه طال وكثرت فروعه » هذا ما قال ، وقد ترك القاريء حائرا في معنى اتمهل وأث واضرابهما واذا كان الضد يذكر بالضد فان هذا الاقتضاب المخل قد ذكرني بما ذكره السيد في شرح قول ابي الطيب ص ١٣٩ :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فقد قال الشارح : شعوب من اسماء المنية يقول : لولا الموت ما كان للشجاعة والصبر ونحوهما فضل وذلك لو ان الناس امنوا الموت ما كان للشجاع فضل على الجبان لانه قد ايقن بالخلود وكذلك كل الاشياء فلولا الموت لما كان لهذا كله فضل على غيره واستوى الشجاع والجبان والصابر والجازع ! » وهذا شرح متكرر لو انقصته الى النصف ما احتاج المعنى الى تكملة ، وكلا التطويل والاقتضاب لا يخلو من اعتراض وقد يلتمس بعض العذر فيما تقدم من امثلة لترك الغامض في الشرح وقصور التفسير عن الاستيفاء ، ولكن ما في الكتاب من الخطأ الصريح في المعاني يتصعب معه وجه المعذر ، ومن امثلة ذلك ما جاء في شرح قول مسلم ص ٥ عن السفينة :

فما بلغت حتى الطلاح خفيرها وحتى اتت لون اللحاء من القشر

فقد رواه السيد هكذا :

فما بلغت حتى اطلاح خفيرها وحتى اتت لون اللحاء من القشر

ثم قال في شرحه «يريد ما وصلت حتى كل خفيرها اي حافظها ومل من التعب وحتى اتت اي صارت واللحاء القشر الرقيق الذي دون القشر الغليظ ونصرف النظر عن ركاكة التعبير في قوله القشر الرقيق الـذي دون القشر الغليظ لنقـول ان معنى البيت هو لقد انهت السفينة رحلتها وهي متعبة منهوكة حتى صار الطلاح حافظها وحارسها وقد تغيرت الطبقة الاولى من لونها بما ذهب من قشرها ، وذلك ما لا يفهم من شرح السيد.

وقال ابو مسلم ايضا في القصيدة نفسها ص ٤ :

تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخباة من كسر بيت الى كسر

فقال السيد تخلج اي تنتحي عن مواضع الحجارة في البحر لئلا تصاب كما تنحت جارية من كسر ستر الى ستر وانا اسأل ما الذي جاء بمواضع الحجارة في البيت والشاعر يقول تخلج عن وجه الحباب قاصدا لطمات الموج ! لقد اختلط على السيد معنى هذا البيت بما قبله من قول مسلم :

تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر

اذ ان النوتي يتجافى بالسفينة عن مواضع الحجارة في البحر حتى كأنه يسير في جبل وعر ! فنقل مواضع الحجارة من بيت الى بيت ــ كما فعل الشارح ــ لا يستقيم .

وقال مسلم ايضا ص٩ :

فكنت نديم الكاس حتى اذا انفقت تعوضت منها ريق حوراء عيطل

وقال السيد العيطل الخالية من الحلى ، وكتب اللغة تقول العيطل الخالية من الحلى حقا ولكنها تقول ايضا انها الطويلة العنق في حسن فأي المعنيين اقرب الى السياق والشاعر في مقام الغزل والثناء ! ان هذا يذكرني بشرح السيد لقول ابي نواس عن الناقة ص١٢ :

وتسف احيانا فتحسبها مترسما يقتاده اثر

فقد قال تسف اي تشدد النظر وتحده ، والذي اراه ان تسف هنا معناها تخفض رأسها الى الارض ويؤكد ذلك قوله فتحسبها مترسما يقتاده اثر اذ المترسم يتتبع مواقع الاثر في الارض ولا يشدد نظره الى اي مكان ! وآفة بعض الشراح ان يلتقطوا بعض المعاني التقاطا من المعاجم دون ترجيح ما يوحيه السياق .

هذه بعض مآخذ تعمدت ان اجمعها من الصفحات الاولى من الكتاب ونظائرها كثيرة تدل على تسرع المؤلف وتعجله وما كان احراه بالتأني والاستبصار !!

اما ما يحمد للمؤلف دون جدال فهو ذكره لابيات مماثلة تتفق في المعنى المختار او تشير الى ناحية منه مما قال شعراء العربية في شتى العصور ، وكأنه بذلك يفسح مجال الموازنة لمن يريد ، وهو لا يقتصر على ابيات الشعراء بل يأتي بطرائف نثرية مناسبة او نكتات ادبية وقد دل ذلك على سعة اطلاعه وحسن تذوقه كما جعل كتاب الفحول شائقا يؤنس القاريء ويسليه ، وذلك ما افتقده الناقدون في الاراجيز !

ومهما يكن من شيء فقد احسن السيد في اكثر ما اختار ، واذا كنا نرى الان ان مختاراته العباسية في

(١) رسالة ابن القارح الى ابي العلاء ص ٥٣ من رسالة الغفران شرح كامل كيلاني ط ٣ . (٢) فحول البلاغة ص ٢٠٥ . (٣) فحول البلاغة ص ٢٧٧ . (٤) المقتطف المجلد ١٩ سنة ١٨٩٥ .

صمت

ذلك الصمت الذي يملأ ايامي خواءا
فيطن الرجع في جنبي عدما وفناءا
هو وحش ناشب الاظفار في صدري المزق
هو عقم يلد اليأس وشوق يتحرق
اي سور بيننا يمتد في الافق ويعلو
شاده الصمت .. وكابوس على الكون يطل
هو شيطان له في الف كف الف اصبع
كلها تمتد نحوي في الدجى والليل اسفع
ملء قلبي منه رعب غير اني لا اريم
مطلق ساقي للريح ولكني مقيم
صرخة بكماء لا تسمع قد اطلقتها
ودموع يابسات ليتني امسكتها
اينما وليت قام الصمت في وجهي جدارا
ضاربا من عزلة جدباء من حولي حصارا
حاجبا عن ناظري النور بأستار الظلام
قاذفا من لجة الشك على الشط حطامي
قد كفى ان المسافات نات واشتد بيني
لم تعد الا بأطياف الرؤى تسعد عيني
ما لسور الصمت يمتد حجابا بيننا
مرخيا اسدافه دون بقيات السنى
صيحة.. وانهار ما شادت من الصخر ثمود
اين مني اختها تهدم اسوار الجمود
فتوافي من وراء الغيب انغام رقيقه
تسبح الروح على امواجها نحو الحقيقة
ايها اللحن الذي قاد الى حظي خطاي
يا شعاعا بددت انواره عني دجاي
لا تدع للصمت ان يحجبني عنك ويمنع
فانا لم اشاهدك واسمعك مضيع

الجزائر جمال مرسي بدر

اكثرها من الذيوع والتداول بحيث لا تدل على جهد ، فانها حين صدور الكتاب كانت تتطلب البحث والتنقيب، وخصوصا ان مختارات البارودي بأجزائها الاربعة لم تكن طبعت بعد ، فقد يتطرق الي الوهم ان السيد قد استعان بالبارودي اذ ان جل ما بفحول البلاغة قد ذكر في مختارات الشاعر الكبير والحقيقة غير ذلك لان طابع المختارات البارودية يذكر ان البارودي قد بدأ في الاختيار سنة ١٣١٨ هـ واتمه سنة ١٣٢١ اما اتمام الطبع فقد كان سنة ١٣٢٩ واذا كان فحول البلاغة قد ظهر سنة ١٣١٧ فان من المحتمل ان يكون البارودي قد قرأه في منفاه .

ولا يمكن بحال ان نقيس جهد البكري في الفحول بجهد البارودي في المختارات الا اذا قيس الجدول بالمحيط ! على ان البارودي قد صنف الكتاب ابوابا وفق الاغراض، فجاءت مختاراته مرتبة مبوبة ، وتلك ميزة لا يشينها تفرق القصيدة الواحدة في عدة فصول لانها قابلة للتجزئة في ذاتها لانصراف اكثر شعراء العربية عن الوحدة العضوية التي يراها النقد الان شيئا لا محيص عنه في العمل الفني ، واذا اخذ على البكري عدم الاهتمام بالتبويب والترتيب ، فقد اخذ عليه عدم التمهيد للقصيدة بما يبين مناسبتها ويساعد على تفهم جوها ، واذا كان السيد قد قدم فحول البلاغة مباهيا به في مقدمته فانه بعد مرور اكثر من عشرة اعوام قد قلل من نظرته اليه ، اذ قال في بيت الصديق ص ١٨ انه وضعه للناشئة من الطلاب ، وهذا شبه اعتذار عما بفحول البلاغة من تقصير لان الكتاب الذي يوضع للناشئة لاتذكر فيه ابيات صارخة عن اعضاء التناسل كما في ص ٧٨ ، ولا تدون به هجاء ابن الرومي الفاحشُ المسف لبوران كما في ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ولا يذكر به ما بعد هذا البيت ص ١٠٦ :

كأن الشمس يوم الغيم لحظ مريض مدنف من خلف ستر
تحاول . . . .

ولا ما بعد هذا البيت ص ٨٢ :

يحب المديح أبو خالد ويفرق من صلة المادح
كبكر . . . .

فكل ذلك مما لا يقال في كتب الطلاب .

ولكن السيد بعد ان اتسع افقه وعمقت دراسته نظر الى كتابه نظرة واقعية فرآه مما يصلح للناشئة ، ولو كان هذا رايه عند تأليف لاشار اليه ، في مقدمته ، وهذا يؤكد ما سبق ان اشرنا اليه في مفتتح هذا الفصل من ضرورة تقدير الملابسات الزمنية للمؤلف والكتاب عند الحكم على اي اثر ادبي يقدم للنقاد هذا وقد كثرت بالفحول الاراجيز العباسية ، ولا ندري لماذا لم يلحقها المؤلف بكتابه « اراجيز العرب » لتلطف من خشونته وترقق من اهابه ، اذ ان اراجيز ابي تمام والبحتري وابي نواس وابن الرومي غير اراجيز رؤبة والعجاج وذي الرمة! لا سيما وعنوان الكتاب « اراجيز العرب » مما يصلح ان تندرج تحته كل ارجوزة عربية ، وان قالها المستعربون في العصر الحديث ، ويخيل الي ان السيد كان يريد اراجيز الاعراب لا العرب فقصر اختياره في الكتاب على اشباه رؤبة وابيه العجاج ! ومع كل ما نقد به كتاب الفحول فهو مرآة ذوق أدبي ، ووسيلة تطلع وطموح وآية شغف بالغ بالادب والادباء وقديما قيل :

قد عرفناك باختيارك اذ كان دليلا على اللبيب اختياره

الفيوم ـ دار المعلمات محمد رجب البيومي



يوسف عبد المسيح ثروة

مسرح برناردشو والجنس الاخر

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

هذا كاتب ملأ الدنيا وشغل الناس ، ويكفي ان نقول انه يعرف بالبلاد الناطقة بالانكليزية ب (ج. ب. اس) لنعرف مدى انتشار صيته وذيوع اسمه ، ولهذا فمن نافلة القول ان نتحدث عن مكانة شو .. وقد قتلت شخصيته وكتبه بحثا وتنقيبا ، حتى في بلادنا العربية ، التي كانت دائما في آخر الركب من حيث الاطلاع على مصادر الادب العالمي وعيونه وشواهدنا على ذلك ، ولا سيما ، في الثلث الاول من هذا القرن ، بل في الثلث الثاني منه ايضا ، اكثر من ان تحصى وهل ادل على ذلك اننا لم نترجم من بدائع الدراما الاغريقية الا القليل النزر ، ومتى كان ذلك ؟ أمن المعقول ـ ان نصدق ـ ان ذلك لم يكن ـ باستثناء ترجمات الدكتور طه حسين ـ الا قبل سنوات قلائل ..

لكن الامر الذي سنعنى به عناية خاصة هو انسانية شو ومدى تفهمه لمشكلات العصر وصلة هذه المشكلات بالمرأة من حيث كونها قوة هائلة في صياغة مستقبل الجنس البشري باسره ، ولهذا السبب بعينه كان شو يحرص كل الحرص على ان يقرب المرأة ـ جهد المستطاع ـ وهي البعيدة هذا البعد كله ـ يقربهامن معترك الحياة ، بتضاريسها الاقتصادية والسياسية وبمنحدراتها ووهادها ، ومرتفعاتها ونجودها ، وهذا ما نراه على اوضح ما يكون من دلالة في كتابه النفيس « دليل المرأة الذكية الى الاشتراكية والسوفيتية والفاشية » وهذه محاولة جديدة وجدية من شو على عرض قضايا الساعة وما يتصل بها من تيارات باسلوب مبسط جذاب مفهوم ، لكي يكون مفهوما حتى على ربة البيت .. التي تكره القراءة عادة .. ومن هذه الطريق تسهم المرأة اسهاما يعدل اسهام الرجل في تصريف شؤون السياسة وشؤون الحياة باكملها بصورة فريدة في تاريخ المجتمع ، لان المرأة لاول مرة يكون لها الحق في ان تصبح انسانا حرا ، او هو في طريقه الى التحرر . بعد ان كانت متعة واناء وبضاعة لها سوق ولها بائعون وشارون وسماسرة محترفون ومن اغرب ما وصل الى علمي في هذا الصدد ، ان المرأة لم يكن يعترف بروحها على اعتبار هذه الروح روحا انسانيه الا في القرن السادس عشر ، وفي اوربا المدنية بالذات ..

ومن هذا المنطلق ينبغي ان نفهم عناية شو بالمرأة ، ولما كنا لا نزال نواصل سيرنا في رحاب المسرح ، فلا بد لنا ان نولي اهتمامنا الى شخوص مسرح شو من النساء ، وآلا نتطرق الى دراساته الاجتماعية والسياسية الاخرى .. ففي الرحاب الذي نحن فيه كفاية ومع ذلك فلا مفر لنا من ان نمضي قدما فيما نحن ماضون فيه اي ان نتطرق من حين الى آخر الى بعض الملاحظات التي نرى ـ من واجبنا ـ استتماما للبحث التطرق اليها .. فمن ذلك مثلا ان شو كان يحس بمرارة تصرفات والدته ، فيكتم غيظه ، ويسكت على مضض .. وهذا الغيظ ظل مكظوما في سائر مسرحياته .. فلم يصب مرارته على أي من شخوصه الانثوية .. وان كنا نجد عواقب هذه التصرفات في موقفه تجاه الجنس بصورة خاصة .. فهو كان ـ على ما نعلم اقرب الى البتولة منه الى الرجولة بالمعنى المستطرق من الكلمة .. وصلاته في هذا الشان لا تكاد تذكر . بالقياس الى عمره المديد ..

وفي صدد المرأة ودخولها الى عضوية المجتمع الحية ، لا خلاص لنا من ان نذكر رائد المسرح الحديث هنريك ابسن ، الذي كان الاب الروحي ، ولا شك لتلميذه النجيب جورج ب. شو .. فقد فتح الرائد الطرق المحرمة المستعصية على الرائح والغادي بطرفته « بيت الدمية » التي هزت المشاعر هزا عنيفا ، فاذا بالمحافظين يرتجفون هلعا وجزعا ، واذا بالتقدميين يهللون نشوة وطربا ، لانهم وجدوا الاول رجلا جريئا يقول الحق ولا يخاف شيئا غير الحق ، ويقول الصدق بملء فيه وعلى رؤوس الاشهاد .. بعد ان كانت كلمة الصدق والحق والصراحة .. كلمة محرمة ، منبوذة ، مهجورة ، في زاوية ظلماء من زوايا النسيان . في اخدود من الارض عميق . ومن ثم فان رد الفعل الطبيعي لهذا الانزواء والانكماش ، لا بد له ان يكون عنيفا مدويا ، لا يقف شيء قدامه ، لانه قوة عاصفة ، نار مدمرة في غابة يابسة الاشجار ، قتلها الظمأ ، وسلبتها ماء الحياة براكين تتطافر منها الحمم المسعورة .. وهكذا نجد شخوص شو « الميجر بربارة (١) » و « فيفي (٢) » و « كانديدا (٣) » و « رينا (٤) » على شيء من العزم شديد ، ذوات ارادة وشخصية وتأثير ، خصيلتهن المميزة هي العنف ، العنف في التصرفات الآتية واتخاذ القرارات الحاسمة ، في اللحظات المناسبة وغير المناسبة ، وروح التحدي للظروف ، ومبارزتها بكل سلاح وبأي سلاح ، وشو ـ في ذلك ـ يؤكد حرية الانسان وقدرته على تحويل ارادته الى واقع حي ، وآماله الى صيرورة حية .

انه يضع نسوته في مواضعهن الطبيعية ، ولكنه لا يحملهن من القوة والبأس ، ما يجعلهن قادرات على التحدي ، بأسلوب يتغير من مسرحية الى اخرى تبعا للسياق الزمني والاطار المكاني . وحرية الارادة وعوة التصميم تجعلان شخوص شو النسوية طاقات مبدعة تتملك ناصية المسرحية ، اي مسرحية ، فتشد النظارة « الجمهور » اليها شدا متواصلا ، لا هوادة فيه .. حتى تتحول الذروة الى ضد الذروة « المنحدر المسرحي » بقفزة نسوية غريبة مجازفة ، يظهر من عنفها وشدة هزتها انها انهيار لجبل من فتات بركان منهار في قاع يم عميق .. وهذه الحدة في الطبع والفورية في الانجاز والسرعة في اتخاذ القرارات لانجازات فورية اخرى امور ملحوظة بجلاء في المسرحيات التي تناولناها بالبحث ، وهذه هي الناحية العاطفية من مسرح شو الذي تتحكم فيه العواطف بكثرة وشدة وعرامة .. على الضد مما يذهب اليه كثير من النقاد المسرحيين ممن يتهمون مسرح شو بالبرودة والغثاثة . والعواطف هذه ـ على اختلاف ما بينها من درجات ومراتب ، دوائر متوسعة لمركز حيوي واحد هو الجنس . فهل اهتم شو بالجنس ، في عصر تفتحت فيه براعم الجنس ، فكان لها هذا الدوي الهائل في كتابات الكتاب ولا سيما منهم الكاتب الانكليزي صموئيل بطلر مؤلف

« طريق الجسد » باعتراف شو نفسه استاذه في فهم قضايا الجنس ؟ ان الذي يدرس شو – من خلال مسرحياته يجده يمر مر الكرام بالجنس انه يحوم احيانا على عتبة غرفة المنام واحيانا يسترق السمع الى بعض ما يقال في هذه الغرفة ، ولكنه – مع هذا وذاك – لا يتجاسر على تجاوز العتبة خشية العاقبة التي قد تكون وخيمة .

ولهذا يصح لنا ان نقول ان شو بيوريتاني « طهري » على الرغم من ازدرائه بالبيوريتانيين وتوجيه كل سهامه اليهم . لانه ان وجد المجال من حين الى اخر الى ان يخوض في حوافي مستنقع الجنس بالطريقة التي خاض فيها د.ه. لورنس في « عشيق الليدي تشاترلي » كما فعل في « حرفة السيدة وارن » فهو لا يفعل ذلك كله الا بكل تأدب ولياقة وحكمة . واذا ما استطال به الوقت في ذلك المستنقع والزمته الظروف بالتفاعل مع البيئة الآسنة ، فانه – بما وهب من موهبة تصريف الكلام وادارته – ينبئك بما تستطيع تفهمه من غير فحش في الكلام ، او سوقية حوشية في الاشارة والتلميح والتلويح ، او صفاقة صدوقية ، تتحدث عن الفضيلة في دور الرذيلة بغية استدرار منافع آنية ، او ترويج غرض ذميم ، بصياغة جميلة ، تنفرد بالنفاق والمداهنة ، وهي بالفحشاء والنكر الصق اديما !

ولما كانت الدراما هي عرض الشخوص عرضا يتطابق والفعل المسرحي بالقدرة على اكتساب السمات الحية لتكوين الشخوص ، ولما كانت هذه الشخوص موفورة الحيوية طافحة بالقوة والسيطرة وامتلاك نواحي الامور لدى شو فمن السهل ان نقول ان دراما شو – في شخوصها النسوية – دراما حية ، اشد ما تكون الحياة حركة وقدرة على ايفاء متطلبات الوجود الانساني .. والسبب الرئيسي في هذه الحيوية – على ما ارى – هو الصراحة الصارمة الشفافة التي تعرض الاشياء بكل عريها وتسميها باسمائها من غير مواربة او تدليس او مداهنة . فالليدي بريتومارت تكشف عن حقيقة ثروة زوجها ومصدرها بقولها وهي تحدث ابنها ستيفن : « .. لا بد ان يكون والدك غنيا جدا ، لان الحرب مندلعة دائما في ركن من اركان الدنيا . » فالمتنفعون بالموت والدمار تجار رابحون لان الحروب حلقات في سلسلة كبيرة متواصلة ، طالما عنصرا الاستغلال والربح قائمين على هذه المعمورة .. اما اذا كان الحق حقا والباطل باطلا ، كل له حدوده ، فان هذه الحدود تخوم لا يمكن ان يدركها « اندر شافت » لان من مصلحته الا يدركها ، والا انهار عمله برمته . وهو تاجر الاسلحة والبارود المتحكم مع صاحبه لازاروس اليهودي ليس في رقاب ساسة بريطانيا حسب بل في رقاب ساسة اوربا ايضا . واذا كان كزنس خطيب برباره يتساءل عن مكانة الشرف والعدالة والصدق والحب والرأفة الخ في دين اندرشافت ، فان الاخير لا يرى مانعا من الاعتراف بكل هذه الفضائل ووضعها في مكانها اللائق من دينه .. لكنه حين يخير بين هذه الفضائل وبين المال والبارود يفضل المال والبارود ، لان الفضائل كلها ليست شيئا ان لم تكن تعتمد على القوة اي على المال والبارود .

وما هي الحياة السعيدة بالقياس الى اندرشافت غير المال الذي يضفي نعيم السعادة على حياتنا ، ويمنحنا القوة التي تجعلنا سادة انفسنا .. وطبعا ان المال هو الذي يستطيع السيطرة على الحياة كما يستطيع البارود السيطرة على نقيض ذلك ، على الموت ..

ولما كان اندرشافت صاحب ملايين وكزنس شاعرا وبربارة مخلصة ارواح فما لهم والرعاع من العبيد والمتمسحين بالاعتاب .. انهم طبقة ارفع من عامة الناس الذين يزحفون على بطونهم ، وليتظاهر الفقير بنعمة الفقر وليتظاهر الجبان بالتواضع بصفته دين فشله وخيبته ومرارته . ولتتظاهر كل فئة وطبقة بما تشاء . فكل شيء في هذا العالم زائف مزيف ، راكد هامد ، ابتسامته تكشيرة صفراء ، خداع ، دخان من غش وتدليس وقناع من تزوير وتزويق ، وهذا العالم ، غير الحقيقي ، الكاذب هو الذي حاربه شو بقوة وقسوة وصدق وعنف .. وهذا هو الموضوع الرئيس في كل مسرحية من مسرحياته . فانت ترى شخوصه وخاصة المحببة للنفس الاثيرة علينا ، تراها شخوصا واهمة ، غارقة في وهمها ، تؤمن بالفردوس ، وهي تتمرغ في الاوحال ووهاد الدنس والشر والتحلل والفساد ، تتمسك بشيء مهما يكن واهيا ، لانها بغير الايمان تسقط في هاوية الضياع ، وتفقد معنى وجودها ، ومعنى تكامل شخصيتها .

فالميجر بربارة ، ابنة اندرشافت ، المليونير ، تأبى ان تعيش في كنف الملايين ، لانها تعرف اي جحيم هو هذا الكنف واية اخلاق اخلاقها ابيها ، الذي لا يعرف كما يقول ابنه ستيفن بين الخير والشر ، لان امور الدنيا مرتبكة في ناظريه من شدة ادمانها على متابعة الارقام في الارصدة والصكات .. لقد غدا اعمش بفعل سحر المال الذي بهره وخطف بصره ، فكيف له ان يرى رؤية الانسان السليم وقد اخرجه المال من انسانيته والحقه بعصابة « الوحوش المقدسة » التي تعيش في كهوف المال والشر والرذيلة ، بعيدا عن القطيع الانساني ! الذي لا يمكن ان يأتلف معه ، لانه – وقد وجد مع القطيع – عرف طريقه الى السلالم ، فاذا به يرقاها على عجل ، وقد دفع خلفه بكل صلة من صلاته الانسانية بعد ان مزقها اربا اربا . انه قد تغرب عن القطيع فليكن القطيع غريبا عنه .

بربارة هذه ، تريد ان تنفصل عن عالم ابيها ، تريد ان تتعرف على الروح ، على النفس ، ولهذا فهي تنتمي بكل وجودها الى جيش الخلاص ، الجيش الذي يعمل على جمع شمل المؤمنين لتخليص ارواحهم من شرور المدنية العصرية وآثامها .. غير ان اندرشافت يتطاول على هذا الجيش المقدس ، فيتباهى بانه قادر على شرائه مهما غلى الثمن ، لان كل المنظمات الدينية – على حد قول اندرشافت – لا يمكن ان تعيش الا اذا باعت نفسها الى الاغنياء .. واذا ما تم ذلك اقتلعت اسنانها .

وهذا امر مهم بالقياس الى رجال الاعمال .. فالعمال الامناء يوفرون اوسع الارباح ويقللون التكاليف .. وعدم اهتمام هؤلاء بمصالحهم وابتعادهم عن الانانية واهتمامهم بالاشياء العلوية .. تجعلهم اعمدة ركنية في بناء صرح الاستقرار والاطمئنان ، وتوفير وسائل النظام والقانون والاخلاق ! غير ان بربارة لا تتصور ، لا تجرؤ على مجرد التأمل في فكرة البيع هذه ، وكيف يمكن ان تفعل ذلك وهي المؤمنة اعمق الايمان بان الخلاص نفسه لن يتم الا على ايدي جيش الخلاص ، وهذا الايمان هو الذي يدفعه الى القول وهي تحاور العامل السكير بل : « .. كلا ، الجيش لا يمكن ان يباع .. نحن نريد ان تقدم لنا نفسك ، ولن ناخذ اقل من ذلك . » بل هذا ، رجل قوي ، يستطيع ان يتنازل من شاء ، متى يشاء ، لانه يملك عضلات قوية ، وارادة على الشر مصممة ، وعن الخير متنصلة ، متباعدة . لكنه ، وقد صفع احدى سيدات جيش الخلاص ، جاء يطلب من الميجر برباره ، ان تصفح عنه، بصفتها مسئولة هذا الجيش . ولم يكن في جيبه غير ذلك الجنيه اليتيم الذي تقدم به الى الميجر فدية وزلفى حق لبربارة ان تمتنع عن بيع الجيش ، فليس يمكن ان يهون الى هذا القدر من الهوان . وليس من حق هذا الانسان التافه ان يتفوه بما تفوه به .

وفكرة اقتلاع الاسنان هذه ، ماذا تعني ؟ انها تعني القضاء على المرارة والغضب في قلوب المعدمين حيال من هو المسئول عن حالهم هذه .. لان نوافذ السماء متى ما فتحت ، وتبين للناس ان الاغنياء خطاة شانهم شان الفقراء ، وانهم تبعا لذلك متساوون في حضيض الخطيئة لا يعلو احدهم على الاخر قيد انملة انعدم معنى الصراع بين الذين يملكون وسائل الحياة وبين الذين لا يملكون غير قوة عملهم .. ويزداد الاقبال على جيش الخلاص من الخطاة المساكين ، من العاطلين والمنبوذين من اعمالهم واشغالهم ، ويزداد الجيش افتقارا للمال كي يسد افواه هذه الحشود الحاشدة من المتهافتين على فتات مائدة الخلاص ، ويجد الجد واذا بالجيش بامس الحاجة الى المعونة المادية ، ويتقدم اللورد

ساكسمند هام ، صاحب معمل ويسكي بوجر المشهور ، لمد يده ، فيشترط من اجل ان يدفع خمسة الاف جنيه ، ان يتبرع خمسة اخرون كل بالف لكي يكون توقيعه للصك حقيقة واقعة ..

ان اللورد صاحب «بوجر» انسان له روح ونفس ، وهو في حاجة الى خلاص نفسه من تبعات هذه الدنيا الدنية ، وتتوسط له تبعا لهذه الحاجة الملحة ، السيدة بنيز الخبيرة في جيش الخلاص ، العارفة ببواطن الامور . غير ان بربارة لا تتصور ، على الرغم ، من وجود روح لدى اللورد بوجر ، الا انه سيبقى ذلك الانسان الشرير ، الذي يبيع الكحول للناس ليغرقهم في حمأة الرذيلة والكسل والبطالة، ولهذا فهي لا تريد الصعود الى حيث هو ، بل تريده ان ينزل الى حيث هي ، وقد عرف والدها بما في ضميرها من موانع وعراقيل تحول بينها وبين قبول عرض اللورد ساكسمندهام ، ولذلك قال : « انها (يعني الخمر) تجعل الحياة اسهل على ملايين الناس الذين لا يستطيعون تحمل وجودهم لو كانوا صاحين تمام الصحو » . وتتم الصفقة ويباع جيش الخلاص الى تاجر الخمر ، كاهن باخوس ، وتاجر البارود والموت ، كاهن مارس ، بكل هدوء وسكينة ، وتخرج بربارة من عرينها ذليلة ، مكسورة ، مهيضة الجناح .. تتلوى وتتلفت ويحاول « شرلي » احد العاطلين ان يتحدث اليها ، فترنو اليه بقلب كسير بحثا عن اكسير جديد في كتب توم بين (٥) او محاضرات برادلو (٦) !

اما ستيفن اخو بربارة المهتم بالخير والشر ، والمتطلع الى السياسة ، ودست الحكم ، فيعرفه ابوه بالساسة تعريفا دقيقا . فهم يثيرون الحرب حين تكون الحرب في صالح اصحاب الاعمال ورجال الاقتصاد ، ويحل السلم متى ما لم تكن الحرب في صالحهم .. وحين يريد هؤلاء الدهاقنة رفع قيمة اسهمهم وعائداتهم ، يحملون الساسة على اكتشاف هذه الرغبة في نفوسهم ، فاذا بقضية رفع قيمة هذه الاسهم قضية وطنية وحاجة قومية ، واذا اختل ميزان هذه الاسهم والمردودات ، جاز الاعتماد على الشرطة والجيش بل استدعاؤهما لتثبيت النظام والقانون .. ومن ثم فنظام الحكم القائم على اساس الربح ـ على الصعيد الاقتصادي ـ نظام قمعي ، اداة ارهابية ، وكل ما يقال عن الصحافة وحريتها والانتخابات والتصويت الفردي السري ، والاحزاب والهيئات السياسية والقادة العظام والقضايا الملحة النارية لعب صبيان والعاب هواة ومحترفين ، ودمى .. ولكن ستيفن ـ على حرافة تعريف والده للساسة .. لا يرى باسا في ان يعزو ما وفره ابوه من مال الى جده واجتهاده وتعبه ، ومن ثم فيحق له ان يكون فخورا بكل ذلك .. وهنا يستطيع شو بما عرف به من لذعة ان يشير الى العامل الفردي في توفير المال اشارة فيها دقة في التصويب ، وضبط في التوقيت ، وصراحة في الادلاء برأيه وماذا يعني كل ذلك واندرشافت لا يرى شيئا معيبا فيما هو فيه من شغل شاغل ؟ فالشغل شغل ولا ضير ولا عيب الا في الكسل . ذلك ان الانسان لم تخلق له يدان الا لكي يحمل السيف او البندقية او القنبلة اليدوية ، ولم يخلق الانسان الا ليقاتل ، فيقتل او يقتل ، وتبقى طريق النصر مفتوحة الى السماء .

اما الفيلسوف كزنس الذي جاء بوده ليطرحه امام قدمي بربارة فلا يرى في حميه المقبل غير عبد يتصور انه سيد ، ها هو المال قد اصبح السيد بعد ان كان عبدا ، لان انسانا معينا قد تنصل من انسانيته ببريق الذهب ، فاذا به يستطيب العبودية والرق والفساد بعد ان فقد اداة التمييز بين الخير والشر ، بين انسانية الانسان وبين اسار الذل وهو ان العبيد في قصور المرجان ، وجنائن الزنابق ، ومقاصير الحور العين ..

المكان قصر شامخ من القصور ، ولكن من هم المسئولون عن هذا القصر ؟ انهم اشد اجزاء المجتمع حطة ونذالة ، انهم صيادو المال ، صيادو الملذات وصيادو المراتب البراقة والنجوم المتسامقة الى العلياء

ورأي كزنس هذا له ما يماثله اشد المماثلة ـ في قصة « قصة القروش الثلاثة » لبرتولت برخت اذ لا يجد ابطال تلك القصة مانعا من امتهان اسفل المهن ، قصد اصطياد المال ، مهما يكن مصدر الصيد ، والغاية التي يفترض ان تكون ملاذا للطرائد ومطرحا للمصائد . ولهذا السبب بالذات كان انهيار آمال بربارة شديدا ، لانها كانت تعرف موت ضمير والدها معرفة اكيدة ، وهذا ما يعرف بخيبة الاحلام المذهبة Disenchament (٧) والى هذه الخيبة تشير بقولها : « .. كنت اقف على صخرة اعتقدت انها خالدة ، وبغير كلمة واحدة من تحذير انحدرت ، وتدحرجت وتحطمت بددا تحتى . كنت احسب نفسي آمنة مطمئنة تحرسني عناية لا حد لها . جيش يمشي الى «الخلاص» معي . وفي لحظة ، وبضربة قلمك على الصك ، وقفت وحيدة . واذا بالسموات خاوية . هذه هي ضربة الزلال الاولى . اونا بانتظار الثانية » .

اذن لقد بيع الجيش واذ به الان في جيب اندرشافت ، وكيف لا يباع مثل هذا الجيش ، وتكنته مباءة الفقر والبؤس والبردوالجوع ، ذلك ان قادة هذا الجيش لم يعطوا افراده غير الخبز والدبس ، واحلام السماء .. غير ان اندرشافت لا يعرف معنى لفضيلة الفقر ، لانه يعده اسوأ الجرائم طرا ، لان جميع الجرائم ازاءه فضائل .. ذلك ان الفقر وباء يصيب مدنا باسرها ، وهو يقتل ارواح كل من يسراه او يسمعه او يشمه بان يكون على مقربة منه .. انه يجعل الملايين ذليلة ، قميئة قذرة عارية ، جائعة ، مسمومة روحيا وجثمانيا .. ان الفقر ليس كفرا ، فالكفر رفض لشيء ، لايمان لعقيدة ، لدين فهو استغناء ، الا ان الفقر حاجة ، فقدان ، ضياع لشيء ضروري ومن ثم كان ضياع جيش الخلاص وتلاشيه حتما لا محيص منه لانه ، وقد ابتلي بالفقر ، قد اصبح وجوده عبثا لا طائل تحته ..

اما فيفي ، ابنة السيدة وارن ، فعسير علينا ان نصفها بوصف يليق بها ، لان شخصيتها من القوة والسيطرة والهيمنة ، بحيث تسحرنا سحرا ، فهي فتاة مهذبة ، راقية التربية ، تعرف قدر نفسها ، وتجيد اصول المعاشرة وتحسن معرفة من يحيط بها ، وتثق بنفسها ثقة كبيرة ، وتمتاز بالصراحة والوضوح والشفافية ، ان ثقافتها التي تيسرت لها ، جعلتها سمحة الخلق ، متينة الاخلاق ، صارمة فيما لا بد من الصرامة فيه . ومع ما تملك من قوة الارادة وفورية الحسم ، اصبحت لهذه الثقافة قيمة خلقية خاصة لا تعرف التردد او التراخي او التراجع ! ان ما تؤمن به هو الذي يقرر مصيرها لا ما تطمح فيه، انها تجد نفسها بين يدي ام ثرية ، ممعنة في الرغد والدعة والحياة الفخمة ، لكنها لا تعرف من هو ابوها ، ولذلك وبعد ان تلتقي البنت امها تستطلع منها عمن يكون ابوها ، فتردها امها خائبة ، لانها تريد ان تشعرها بحقيقتها الفاجعة ، حقيقة حرفتها . الا ان فيفي تخبرها انها تستطيع ان ترفض الاجابة عن سؤالها اذا شاءت ولكنها ان فعلت ذلك فلن يكون هذا اللقاء بينهما الا اللقاء الاخير . فتدهش الام من صرامة ابنتها واصرارها على معرفة ما تريد الاطمئنان اليه .. ان الام تصر على الكتمان وتلوذ بهيمنتها التقليدية ، بصفتها اما لتدافع عن

(●) اقتصرت في دراستي هذه على الميجر بربارة وفيفي بطلتي مسرحيتي (الميجر بربارة) واحرفة السيدة وارن نظرا لضيق المجال ي.ع. ثروة (١) بطلة مسرحية « الميجر بربارة » (٢) بطلة « حرفة السيدة وارن » (٣) بطلة « كانديدا » (٤) رينا بطلة « السلاح والانسان »)٥) هو الكاتب الحر والسياسي الانكليزي الذي عمل على تحرير الولايات المتحدة من ربقة الاستعمار البريطاني وقد اشتهر بكتابه «حقوق الانسان» وفيه يدافع عن الثورة الفرنسية الكبرى . (٦) مصلح بريطاني وكاتب اجتماعي ، حر التفكير (٧) هذا الاصطلاح من مبتكرات الناقد المسرحي المعروف اريك بنتلي ، وقد اورده في دراسته الممتعة الموجزة لشو في احدى مقدماته .

سفر

يا زورقـي المجنون هيا بنـا
نمضـي ولا يخيفنـا البحـر
حياتنـا ليس لهـا ساحـل
وعمرنـا ليس لـه بـر

دمشق　　　صالح درويش

نفسها وعن مسلكها في الحياة ، ولكن ذلك كله لا يجديها نفعـا .. اذ لا بد للسؤال المحير من جواب لا بد ان ينجلي هذا الضباب الكثيف، لتظهر الحقيقة .

ولكن ما هي الحقيقة ؟ اهي الحياة كما تعيشها النساء الاعتياديات في المعامل ، في اواخر القرن التاسـع عشر ، في غرف الخياطـة الفاسدة ، المليئة بالدخان الخانق ، المحشودة حشدا بالانفاس المسلولة، الموبوءة بالامراض الوبيلة . بساعات عملها التي لا تنتهي الا لكي تبدأ ، والعمل المرهق الذي ينقض الظهر ويمزق النفس ويحـرق الروح ، ويذيب الكرامة ، ويسحق الانسانية ، ويقطع صلات بني آدم الطبيعية مستمر في ثقله المتزايد ؟ . ان كانت هذه هي الحقيقة ، فقد رفضتها اخت السيدة وارن من قبل ، فلماذا لا ترفضها من بعدها ، لكي تحيـا انسانة لها قدر ومنزلة ومكانة ؟ وكيف يمكن الحصول على كل ذلـك من غير ان تلجأ الى كل وسيلة قد تؤدي الى هدفها . حدثتها اختها ليز ذات مرة ، وهي لما تزل في اسفل السلم ، تعمل كما تعمل العاملات فقالت : « ماذا تفعلين هناك ، ايتها الحمقاء الصغيرة ، تذبلين صحتك ومظهرك من اجل منفعة آناس اخرين ؟ » وكان لهذا التساؤل جـدواه بعد ان عرف ان ليز قد استأجرت لها قصرا فخما في بروكسل ، فلماذا لا تسير على هديها ، وهي لا تقل عنها ادراكا لبواطن الامور ، ذلك ان كـل شيء مظهـر زائـف ؟ وكـل ما بني علـى الزيف فهو زائف فلمـاذا تقصـر فـي ميدان تعـرف الاستفـادة منـه احسـن المعرفـة ، ولهـا فـي اختهـا اسوة حسنـة . وكـل شيء يمكن تبريره من وجهة النظر المالية، يمكن تبريره من وجّهة النظر الاخلاقية، لان المال والاخلاق صنوان لا يمكن ان يفترقا في مجتمع طريقة حياته تجمع بينهما باواصر اقوى من اواصر الدم واقوى من كل الفضائل التـي يتحدثون عنها كثيرا في الامثال والحكم لتبقى امثالا وحكما ابد الآبدين! ان السيدة وارن ، امرأة واقعية ، تعترف بالحشمة الظاهرة وتكفيهـا هذه الحشمة لانها هي الحشمة الوحيـدة المعترف بها في مجتمـع النقائض . فما معنى ان يحتفظ الانسان بكرامته والجوع والعبوديـة والذل كوابيس تعذبه في احلامه ليلا وتسحقه سحقا بواقعها نهارا ، واذا بالليل والنهار عذابان متناوبان ، وطبيعي ان تكون خلاصة هـذه الامور حكمة وهل ادل على الحكمة من قول السيدة وارن وهي تنصـح ابنتها : « .. لا تجعلي الناس يضلونك ، الناس الذين لا يعرفـون العالم ، يا بني . فالطريق الوحيدة للمرأة التي تريد ان تحتفظ بحياة كريمة ، هي ان تصبح طيبة ازاء من يقوم بأودها عـن طيبة خاطر ؟»

واذن فالطيبة المتبادلة طريق لاستدرار المال ، باقصر وقـت ، وايسر جهد ، وهي حجر الاساس في حرفة السيدة وارن التي يسهم فيها السيد كروفت اسهاما اقتصاديا رابحا ، وهذا رجل واسع سعة الحياة وطبيعي ضعف ذلك ، ذلك انه رجل عمل يجيد اصابة هدفـه بيسر وتوفيق . فلماذا لا يشرك فيفي في هذا التوفيق بان يتخذهـا زوجا له ، فيكون الثلاثة في شركة رأسمالها كبير وعمرها مديد وربحها أكيـد ! .

الا ان السيدة وارن تضحك من فكرة صاحبها ، وتعود الى ابنتها لتطلعها على جلية امرها ، فاذا بالبنت تذهل لما تسمع له ويختلط عليها الامر ، ثم لا يلبث ان ينجلي . وما تكاد الام تستطيع بما اوتيت مـن حجج متينة ان تثبت سلامة مركزها ماليا ، حتى يؤخذ على يدي فيفي فتصرخ : « أماه انك امرأة مثيرة للاعجاب ، انت اقوى من انكلترا كلها ـ ولكن احقا اصدقا ، لا تشعرين بشيء من الشك يراودك ، او بشيء من الخجل ؟ » وعن هذا السؤال الصريح تجيب الام بكل برود : « لـم اشعر بذرة من الخجل قط . اعتقد ان لي الحق ان افخر بترتيـب ما رتبت » .وبعد هذه الملاحاه بين الام وبنتها يعود كروفت ليرفـع رأسه مغريا فيفي بقوله : « .. بينا نحن في العالم ، نحن فيه ، فالمال مال » . ويستطرد : « انا رجل مأمـون الجانب من وجهة النظـر المالية . » فعمله من جهة لا غبار عليه ، لانه مستقيـم وشريـف ، والدليل على ذلك اسهام امها معه ، ثم اليس من حقه ان يستغل ماله فيما يدر عليه من فوائد من مشاريع واسعة الانتشار ؟ ويختتم رأيـه في الموضوع موجها كلامه الى فيفي : « اذا كنت تريدين ان تنتقـي وتختاري اصدقاءك على وفق مبادىء اخلاقية ، فما عليك الا الرحيل من هذا البلد ، الا اذا اردت ان تقطعي اواصرك بالمجتمع الراقي المهذب بأسره . »

ولكروفت حجج كثيرة غير هذه فالعالم بالقياس اليه ليس مكانا رديئا كل هذه الرداءة كما يدعي الناعقون ، فطالما لا يتحدى المـرء المجتمع تحديا سافرا ، لا يسأل المجتمع ايا كان اسئلة محرجة ، فالعمل بالنتيجة لا بالنية ، وهو لا يفترض في مضمونه حكما اخلاقيا ، لانـه جهد وهو بذل وتعب وتنظيم غايته زيادة المال والاستمرار في هـذه الزيادة ، وكل عمل لا ينتظم في هذه القاعدة يكون الحكم عليه بالافلاس امرا محتوما لا مخلص منه ولا مفر . غير ان كل هذه الحجج لا تدفـع فيفي الا الى القول : « عندما افكر كيف يسمح لك المجتمع وكيـف تحفظ القوانين وجودك ، ووجود تلك المرأة ذات الكرش الرأسمالـي .. اشعر بنفسي بين زمرة الملعونين » . ما العمل اذن والحياة هـي هي ؟ ان عليها ان تستعد لتقبلها كما هي . وما عليها وقد عرفت مـا هي فيه من حمأة آسنة الا ان تنظر الى واقعها نظرة المشتغلين فـي الاعمال العامة ، من اولئك الذين يبقون اعزابا بعيدين عن الرومانسية.

ومع كل ذلك ففيفي لا تجد الشجاعة الكافية لكي تقضي قابـل ايامها في الحديث عن عارها وعارهم هم ، وعن الرعب والخجـل اللذين تشعر بهما الان ونصيبهم من هذا الرعب وهذا الخجـل . ان الرذيلة كلمة شريرة اخترعها ابليس من العدم لتكون نارا تأكل الالسنة والافئدة وكل وتر من اوتار من لم يشعر الا بهذه الكلمة بحارا لاهبة تحيط بهم فجأة وعلى حين غفلة . كما كانت الحال بالقياس الى فيفي .. ولهذا السبب بالذات نرى الفجيعة تتلوى على لسان فيفي وتئـن انينا مخيفا بقولها : « .. ان كلمتين شائنتين تستطيعان ان تصفا مركز والدتـي .. كلمتين ترنان في اذني وتتصارعان على لساني .. غيـر اني لا استطيع ان انطقهما . »

ها هي اذن فتاتنا البريئة ، الزنبقة البيضاء تصطـدم بجـدار الزيف الذي تقول عنه السيدة وارن بصلافة : « كل شيء هو مظاهر ، للابقاء على الجناء اذلاء خانعين ، وعامة الناس هادئين » ذلك ان مثل تلك المظاهر ، مثل تلك الحياة تليق بها وتليق هي بها ، ولو لم تفعل ما فعلته ، لحل محلها من يفعل فعلتها واكثر من ذلك .. ومن ثـم فلا ضير عليها ما دام المجتمع كله متألفا من جدران كثيفة الزيف .. وما دامت هي انسانة ، امرأة ضعيفة تسعى وراء لقمة الخبز سـعيا حثيثا ، في ذلة العمل المرهق ، ونصب سهر الليالي المضنيـة .. واذ ببريق الذهب يتلصص عليها في زريبتها ذات يوم بائس غير ان الفتاة تبصق في وجه هذا اللص بينما تتخذ منه الام خدينا وعشيرا .

بغداد　　　يوسف عبد المسيح ثروة

تذهب اليوم لتقابله ، وما اكثر اللقاءات التي تمت بينهما . لكنها اليوم تشعر **بانقباض جعلها تفكر** ثانية في امر لقائها به . ويرجع هذا الانقباض الى ضيق عانت مرارته حين حاولت ان تتبادل الحديث مع **زميل لها ، فسألها عن هشام .. انه** يسألها **عن** هشام ، **لانه لا يراها الا** معه . فأحست حينذاك بمرارة ، **واسودت الدنيا في عينيها ، وشعرت بتفاهة الحياة التي تعيشها .**

تتقدم خطوة وتتراجع تفكيرها خطوات **الى الوراء** . تندفع بقدميها ، لكن **تفكيرها يهيمن على احساسها** ويجبرها على التراجع ، ولو في **محيط الشعور** .. وليس هنالك ثمة تغيير اخر في الظاهر . فهي لا شك ستصل اليه سواء رضيت ام لم ترض ، فقدماها تصران على مواصلة المسير .

هي في حيرة من امره ، لقد سألته ذات مرة: «ماذا انا بالنسبة اليك؟» **افاقت من سؤالها على** ضحكة ذات رنين خاص انطلقت مزغردة من فمه ، التقت بنظراته على التو .. لكنه لم يلب رغبتها ، **وانما قال لها :**

— انت تفكرين بسرعة عجيبة ، وتسبقين الزمن .. لكني انصحك بان تتركي الامور **تسير في مجراها** الطبيعي .. فأنا أؤمن بالحظ والفرص والمفارقات ، وبأن الانسان مسير .

تعجبت شهيرة من اجابته .. ولا شك انها صدمت في امالها . تركته ، وفي داخلها تتضارب الاحاسيس .. ويهتاج صدرها بثورة ادت الى اصرار عنيف على تقييد علاقتها به ، وعدم الانسياق في تياره . انها لا شك مختلفة عنه تماما .. ثمة فارق كبير يفصل بينهما .. لكن هذا الاصرار لم **يخرج من دائرة التفكير الى موضع التنفيذ . وتواصل المسير .**

لا شيء يضايقها غير التفكير في هشام ! انه ظل ثقيل عليها ان تمشي بجواره ، وان تواكبه . ربما يكون خسيسا ، حيث يعلم انها لا يمكن ان تقاطعه ، او ان تفكر في غيره . لكنها — رغم ذلك — مضطرة الى ان **تربط مصيرها به .**

انه فخور بها . يفخر بها امام باقي الطلبة ، بل ويزهو بها امام الطالبات . ولا يألو جهدا في البحث **عن حديث يستطيع عن طريقه ان** ينطق باسمها امام الجميع . واغلب طلبة الهندسة **يستهويهم الاستماع الى تجارب الاخرين العاطفية ومغامراتهم** عن خوض التجربة . ان صرامة العلم **فيها جعلت الطلبة لا** يبحثون عن غاية ، **اللهم الا غاية العلم** لاجل الالة . **ونفر قليل من تلك الزمرة يشذ على هذه القاعدة ،** ومنهم **هشام ..**



بقلم حسني سيد لبيب

وشهيرة تعجب به كلما عرفت انه يفخر بها امام الطلبة . حقيقة لا تثور عليها ، لانها نافذة مفتوحة تطل منها على قلبه ، وتتعرف على خبيئة نفسه . لكنه ثرثار .. وثرثرته هذه جعلت معاني كلماته ضئيلة ، وربما تفقدها اهميتها . كثيرا ما يبوح لها بكلمات حانية صافية كاللآلىء تسعفه في هذا محاولته تنغيم كلماته ، وجعلها تتموسق بطريقة جذابة ..

الشارع مزدحم ، ويتعب اذنيها الضجيج ، والضيق الذي تعانيه اصبح ضيقا من كل شيء .. من هذا الشارع المزدحم ، ومن صداع رهيب يحفر رأسها ويسد امامها مسالك التفكير . والاضواء المتلألئة تفسد جمال المساء . كل شيء حولها مزعج . وتفكيرها ايضا جزء من هذا الشارع ، باضطرابه وضجيجه .. **الافكار تتزاحم وتتضارب ..** كادت تصطدم بأحد المارة ، حاولت ان تخلي له الطريق .. فعل هو نفس الشيء .. تكررت المهزلة اكثر من مرة ، حتى جمدت عروقها من الخجل والاضطراب معا . تسمرت قدماها على افريز الشارع .. هدأت انفاس الرجل وابتسم معتذرا ، واستطاع ان يسلك طريقه في هدوء .. ومضت شهيرة في طريقها بخطى **متثاقلة .**

مرة ثانية ، عاودت التفكير في هشام .. **انها تحبه** ، وتريد ان تتكلم معه **في امر هذا الحب** .. لكن كبرياءها **يلجمها** ، فلا تبوح بشيء ، وتكبت عاطفتها .. فهشام لا يريد ان يقول شيئا . ومع كثرة كلامه ، يحرص دائما على الا ترد لفظة «حب» في كلامه . **ليس هذا لاتصافه بالخجل** ، فجرأته المعهودة تنفي ذلك .. **لكنه ذكي ، يستطيع ان** يخفي مشاعره .

اما هي ، فمشاعرها فياضة ، ولا تستطيع كبتها .. تود لو تبوح له بكل شيء ، لكنه لا يعطيها الفرصة للتعبير عما يخالجها من احساس وعاطفة .

لاول **مرة** تشعر بالتعب . كانت تفرح **دائما اثناء** ذهابها اليه . ليس يفصل بينهما سوى هذا الشارع الصاخب . كانت تراه من بعيد حين **كان يزور اخاها ايام كانا زميلين** في الثانوي . **كانا شابين طائشين .** لم ينالا الشهادة الثانوية بسهولة . اعجبت به من بعيد . وتبادلت معه كلمات عابرة لا يمكن ان تنفذ الى الفؤاد ، لكن شهيرة كانت تبني



احلامها في الخيال ، وتعيش واقعها باحلامها المرهقة ، انها تود ان يكون الواقع صورة من الحلم والامنية . وان كلمة واحدة منه كفيلة بأن تغير طبيعتها لايام غير قليلة .

كان الاثنان – هشام واخوها – رفيقي الفشل ، وكانت تجتهد لتلحق بهما . فاستطاعت ان تصل الى الشهادة الثانوية ، وهما ما يزالان فيها . فأحست بفخر وفرحة . بينا الاثنان قد عقدا العزم، منذ ذلك الحين ، على ان ينجحا في الثانوية هذا العام بأية وسيلة، وحتى لا تنتصر هذه البنت « المفعوصة » – كما يسميانها – عليهما .

تحقق النجاح للثلاثة فيعام واحد .. وكان الحكم بينهم هو مجموع الدرجات . كان هشام اكثر جدية من حلمي ، واستطاع مجموع درجاته ان يؤهله لدخول كلية الهندسة ، وشاءت المصادفة الحلوة ان تقبل شهيرة في نفس الكلية . اما حلمي ، فقد قدم اوراقه الى الكلية الحربية وقبل فيها . وتوطدت بطبيعة الحال الصداقة بين هشام وشهيرة ، وقد ساعدتهما الظروف على ذلك .

تنهدت شهيرة بعد ان استرجعت الماضي . ولكن !.. هنالك اشياء اخرى كثيرة تترى في خاطرها ، وتتزاحم في تلاحق مضن ادى بها الى صداع مخيف . أضطربت ، وجاهدت نفسها كي تتزن .. عانت صعوبة في ذلك ، لكنها حققت في النهاية نجاحا لا بأس به . وادى الاضطراب – في الظاهر – الى ان تنقل كراسة تقارير معمل الفيزياء من يدها اليسرى الى اليمنى ، دون ان تلاحظ هي ذلك .

تلفتت حواليها كأنها تخشى شيئا، هنالك الف مشكلة تزاحم تفكيرها.. نظرت عفوا الى مرآة احدى المحلات التجارية .. بدا وجهها شاحبا ، فاعتراها خوف . خطت خطوة كبيرة حتى لاتطيل النظر في المرآة ، فلربما تنزعج من هذا الشحوب . رمقت عيناها شابين يدور بينهما حديث حول المراهقة والجنس والزواج .. ودت لو تشاركهما الحديث ... استرقت السمع الى ما يقولان ... تباعد الشابان ، وتضاءل صوتهما حتى انعدم، نظرا للمسافة الشاسعة التي فصلت بينها وبين الشابين .. احدهما لا يرى في الزواج الا عنصر اتزان للحياة ، والاخر يراه كارثة تحل على الذي يتورط فيه . الاول يراه ضرورة وأجبة ، والاخر يراه كارثة محققة .

وهشام !.. انه لا يخوض في هذا الحديث . وربما يقول رايه لاحد اصدقائه ، لكنه لا يبوح لها به ... هنالك ازمة عنيفة تكاد تجرح كبرياءها .. فهشام ، على كثرة احاديثه وتنوعها ، يصمت فيالوقت الذي تريد منه الحديث في موضوع يعشقه كل الناس ، ويعيدون اللغو فيه ولا ينتابهم ملل ، ففي كل مرة يستشعرون اللذة والمتعة . انه لا يتحدث عن الحب .. انها تتمنى لو تحدث ، كي تبوح له بحبها . ويراودها سؤال .. فهل هشام كهذا الشاب الذي يمقت الزواج ويلعنه ، ام هو من الصنف الذي لا يرى في الحب معنى او عنصر جمال ؟

هنالك شاب اخر بدأ يشغل بالها في هذه الايام . فخيري من النوع الهادىء الوقور .. حيي، خجول .. ما ان يبادلها التحية حتى يتلعثم في القول وينهيه بضحكة فاترة تفصح عما يعانيه من توتر . صريح القول ، لكنه لا يجيد الحديث كهشام .

افكار كثيرة تتلاحق في ذهنها ، والشارع لم ينته بعد ، ربما تكاسلت خطواتها في المشي ، لكنها على العموم تحس براحة في التفكير والتكاسل معا . فليس هنالك حافز قوي يدفعها للذهاب الى هشام مثلما كانت تفعل في كل مرة تلتقي به . فلا يعدو الحافز امرا سوى تدوين نتائج تجربة فيزيائية اجرتها مع هشام . هذه التجربة العويصة التي اربكتهما ، واستعانا فيها بخبرة خيري ، الذي اظهر حصافته وفهمه لادق الامور فيها . كانت تجربة عويصة للغاية ، كانت بالنسبة لها طلسما لا تستطيع فك رموزه وحل الغازه . لقد تعودت ان تفهم كل التجارب من هشام ، لكن هذه التجربة بالذات قد تعسر عليها فهمها . انها شيء لا يشجع المرء على فهمه . تعقدت التجربة قبالتها ، وتاهت نظراتها في اسلاك عديدة اتصلت ببعضها بطريقةغير واضحة. وحين طلبت من هشام ان يشرح لها ما تفعله ، اجاب طلبها قدر استطاعته ، تطوع خيري لمساعدتها. تركته يشرح ، وشردت في تعبيرات وجهه . ليس هنالك ثمة انفعال ، اللهم الا ذلك الانفعال الذي يعقب الاجهاد . تأملته كثيرا . انه شاب من طراز اخر غير هشام ، كثيرا ما تهيبته ، لكنها دائما تتمنى لو تتفهمه .

.. وانساقت قدماها بحركةعفوية الى شارع جانبي منحن يلتقي عند نهايته بالشارع العمومي الذي كانت تسير فيه. انساقت قدماها طواعية بدون ان تدري ، ربما يرجع ذلك الى رغبتها في اطالة لحظات شرودها واجترارها هواجس الماضي القريب. وعلى العموم ، لم يخطر على بالها مثل هذا التفكير ، وانما استغرقت في تفكيرها في خيري .. وكيف طالعتها ضحكته الاولى الرقيقة . لم تره يضحك ابدا ، لاول مرة .. تراه يضحك .. وكانت ضحكته جميلة .

كان ذلك حين انتهى من شرح التجربة ، وبعد ان طلب منها تجهيز التجربة كما هو واضح في الرسم ، ووعدها بأن يعود اليها لينجز لها التجربة . وكان المفروض ان تجد هشاما بجانبها .. لكنها فجأة وجدت نفسها وحيدة . فتحت المذكرات ، ربما لاول مرة ، وحاولت ان تقرأ التفاصيل ، فوقفت عند « خطوات

التجربة » واجمة . كانت الخطوة الاولى تقول « وصل الدائرة الكهربية كما بالشكل » .. نظرت الى الشكل فاحتارت .. ظلت تحملق في الشكل المرسوم كثيرا الى ان جاء خيري ، فألفاها واجمة ساهمة ، فلم يستطع ان يحبس ضحكة انطلقت رغما عنه. كانت ضحكته جميلة ورقيقة، انسابت كنغم ضاحك وسط هذا الهدوء الذي يشمله . شعرت بالبهجة ، وتجاوبت مع ضحكته قائلة :

ــ اضيق شيء على نفسي تجارب الفيزياء .

حاول ان يعقب على ما قالت ، لكنه فشل في ان يكون جملة اختلطت كلماتها في ذهنه .. ربما كانت الجملة تعبر عن استعداده الطيب لشرح ما يتعسر عليها فهمه في التجارب الفيزيائية . لكنه لم يبح بوحا كاملا ، او انه خجل من الضحكة التي انطلقت رغما عنه .

عادت ثانية الى الشارع الصاخب، فوجدت نفسها قد جاوزت بيت هشام ، فقفرت راجعة .. التقت به، تبادلا التحية ، ثم جلست قبالته . اعطاها كراسته في صمت وهمت بتسجيل نتائج التجربة ، تمهلت قليلا حين سمعته يقول :

ــ اتعبتني نتائج التجربة .. لكن تأكدي أنها صحيحة ومضبوطة .

نظرت الى عينيه ، انهما عينان هادئتان وادعتان .. انها تعرف أنه يكذب عليها ... ودائما يكذب ... لكنها اليوم لم تعد تطيق اكذوبة واحدة منه .. شلت يدها عن الكتابة ، وشردت قليلا .. ارتفت اهدابها وهمت بأن تقول له شيئا ، فارتعشت شفتاها ولم تتفوه بكلمة واحدة .. تناول لفافة من علبة اللفائف ، واشعلها . اخذ نفسا عميقا ثم اتجه الى المسجل وقال لها:

ــ لقد سجلت على « الريكوردر » احدى روائع موزار ..

ادار المسجل وهو يضيف :

ــ اتعجبين بموزار ؟

اومأت برأسها ، ثم عادت ثانية الى الكراسة قائلة لهشام :

ــ اريد ان اعرف ما فعلته في التجربة .

ابتسم هشام وقال :

ــ في الحقيقة ، نقلت النتائج من كراسة خيري .

ــ حسن .. يحسن بي ان افهم التجربة منه .

قالتها في صدق وحرارة . .

ــ كما يحلو لك ..

بعد فترة صمت قصيرة ، استأذنت اخت هشام ، ودخلت تشاركهما الحديث .. مر الوقت على شهيرة ثقيلا رتيبا .. انتهى التسجيل فنهضت مستأذنة . خرجت وهي تتمنى لو تصل الى البيت بأقصى سرعة ، انها لا تريد ان تفكر في شيء .. لا في هشام ، ولا في خيري .. لقد اكتشفت اكذوبة هشام ، وليس هذا غريبا عليها ، لكن وقع الاكذوبة كان مريرا .. كما ان هشام غاظها باعترافه بالكذب وهدوئه واتزانه . اوقفت احدى سيارات الاجرة واختبأت فيها . ان المسافة قصيرة ، لكنها تشعر بالتعب، انها متعبة ، ضجرة .

وصلت الى البيت . هرولت الى غرفتها والقت بجسمها على الفراش ، اجفلت عيناها ، لكنها لم تنم . تقلبت على الفراش في قلق .. اصبح الصباح ، فارتدت ثيابها وخرجت .

وفي الكلية ، بحثت عن خيري . تنهدت في راحة حين رأته ، كأنها عثرت على ضالتها المنشودة . حيته، ربما لاول مرة ، فرد التحية وهو متردد ، فلم يكن يظن ان شهيرة ستحييه ذات يوم . تبادل معها بضع كلمات لا يربطها هدف ، ثم نظر الى ساعته فأنبته الى موعد المحاضرة . لم تحاول البحث عن هشام ، كعادتها ، وانما اتجهت الى المدرج وحدها .

ان خيري افضل من هشام ، ولعل الميزة الوحيدة التي تعجبها فيه هي صراحته ووضوحه . استحوذ خيري تفكيرها طيلة المحاضرة ، واستاذ « الطبيعة الذرية » غارق في بحوث العلماء عن الذرة ، محاولا دحض بعض البحوث واثبات صحة البعض الاخر .

وتتذكر شهيرة ما حدث بينهما ذات يوم .. كانت تقف مع هشام عند « البوفيه » .. كانا يشربان « الكوكاكولا » ، وتصادف ان وجدا خيري جالسا وفي يده كوب شاي، قالت له ضاحكة :

ــ اتدري .. انت تشرب الساخن ونحن نشرب البارد ..

ابتسم خيري ولم تسعفه بديهيته.

كانت شهيرة تحس بهوة تفصل بينهما . وجف قلبها حين رأته يبتسم . قالت له بجرأتها المعهودة:

ــ نحن مختلفان ، فما رأيك ؟

ــ الامزجة تختلف ، لكن هناك شيئا مشتركا يربطنا جميعا . بعضنا يستقل عربة ، والبعض يستقل سيارة ركاب ، وفئة ثالثة تأتي مشيا على الاقدام ، لكننا جميعا في النهاية نتلاقى معا في مكان واحد .. اننا جميعا طلاب حقيقة . لقد اجريت تجربة لتعيين مقاومة ملف ، وعرفت انها تساوي ٤ اوم، ثم تيقنت انها نتيجة مضبوطة ، فاذا توصلت الى انها ١٠ اوم فلا بد انك مخطئة، ولابد ان تقتنعي بالصواب . وستعرفين حقيقة أن مقاومة الملف اللازم للتجربة هي ٤ اوم . لن تقل، ولن تزيد .. انها تساوي ٤ اوم .. كلنا نكتشف ان هذا الرقم صحيح.

لاول مرة يسترسل معها في الحديث . كان حديثه مؤثرا ، فخيري شاب فقير .. انتابتها رجفة خفيفة من التأثر .. وبلا وعي ، وفي نوبة حماس ، سكبت على الشاي قليلا من الكوكاكولا ، ثم استرسلت في الضحك ، حين اكتشفت انها تورطت في عمل غير لائق . وشاركها خيري بابتسامة باهتة ..

نهاية الدرس

ساكتب الحرف بالسكين والنار ... وباللهيب الذي يجتاح اغواري
بنصلة الخنجر المغروس في كبدي ... بشهقة الجرح فيها .. بالدم الجاري
لن يسكر الحب بعد اليوم قافيتي ... ولن يهز رقيق اللحن اوتاري
ولن يذوب الهوى شعرا على شفتي ... او يستطيب ربيع الحب نواري
فكل ذاك الغناء العذب حشرجة ... وغصة في عروقي .. الف اعصار
وكل ذاك الجمال الخصب اقنعة ... تخفي الدمامة.. تكسو جسمها العاري
يا مهمه الزيف تاهت فيك قافلتي ... عبر السنين، وطالت فيك اسفاري
فما اهتدى ناظري يوما الى افق ... الا وكان سرابا يخدع الساري
حتى م تجهل معنى خطوها قدمي ... ويخنق الفجر في شلال افكاري ؟
حتى م تجهل معنى خطوها قدمي ... حتى م يرسم غيري خط اقداري ؟
قررت يا ظلمة القبر الرهيبة ان ... أزيح تربي .. وان اجتاز اسواري
ما عاد عمري جراحا مرة ودما ... على دروب الاسى والليل والعار
ما عاد نبضا وانفاسا ممزقة ... في شدو قافية او همس قيثار
ما عاد.. ما عاد.. اني قد كرهت فمي ... يردد النغم الممزوج بالنار
كرهت ان اسمع الامجاد ثرثرة ... في شعر مستشعر او لغو ثرثار
ماعدت..والخنجر المغروس في كبدي ... ما عدت أؤمن بالتطبيل والزار .

لندن **علوي الهاشمي**

لم يعبأ هشام بكل ما حدث ، ووقف خيري حائراً لا يدري ماذا يفعل .. ثم هداه تفكيره الى ان يضع الكوب على النضد ، وكانت حيرته هذه كفيلة لاثارتها، فاستغرقت في الضحك ثانية . انها اليوم تذكر كل ما حدث منها بدون وعي ، وتندم على كل ما فعلته . ان تعلقها بهشام اودى بها في النهاية الى شعور بالفراغ والتفاهة . ليس ثمة هدف تتعلق به . شعرت بسطحيتها واستهتارها .

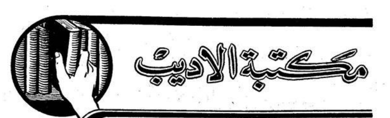
ما يزال الاستاذ مستمرا في محاضرته ، وما تزال شهيرة تفكر في خيري .. حاولت ان تستعيد في ذاكرتها ملامحه . كان القلم الرصاص في يدها ، فخطت خطوطا قليلة محاولة رسم صورة لوجهه . نظرت الى ما رسمت فعرفت انها مخطئة . ان خيري الذي تعرفه لا يشبه هذه الصورة . افاقت على صوت زميلتها تهمس :

ـ ما هذه الصورة ؟ انها صورة هشام !!

صعقت شهيرة . كان لديها كلام كثير تريد ان تقوله لزميلتها ، لكنها جبنت ولم تتفوه ببنت شفة . اغلقت كراسة المحاضرات ، وخرجت من المدرج ، وعينا زميلتها تتبعانها ، وعيون الطلبة في اثرها .

مرت على « البوفيه » ، لكنها لم تشأ ان تجلس ، وتوجهت الى غرفة الطالبات . جلست وحدها ، فكل الطالبات الان في المدرجات. احست برغبة في البكاء ، لكنها حبست دموعها . اخرجت من حقيبتها صورة صغيرة لهشام ، ومزقتها قطعا صغيرة والقت بها من النافذة .. انها تكره هشام ، لم يعد في قلبها حب او بقايا حب . لن تربط مصيرها بهشام أو بغيره . وتنهدت في راحة .. فقد احست بأنها ليست تافهة ، وبأنها توشك ان تولد من جديد !

القاهرة **حسني سيد لبيب**



وجهـــة نظــر

تاليف : الدكتور زكي نجيب محمود ـ ٤٠٨ صفحة ـ طبـع ونشر مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة

لعل صاحب هذا الكتاب ، غريبا على هذه الصفحة ، وان كـان ليس غريبا على قرائها في كل ميادين الثقافة والادب ، اينما ولوا وجوههم شطر اي بلد عربي ، او انتجعوا معين القراءة الصافية ، والادراك السليم .

ولعلي أنا لا أخدع القراء ، اذا اعترفت لهم اعترافا صريحا ، بانني لم احاول قراءة هذا الرجل الا في هذا الكتاب ، وبعض مـا يكتبه في مجلة « الفكر المعاصر » التي يرأس تحريرها ، لبغضي الشديد فيما ينتجه بعض فلاسفة العصر الحديث ، ممن لا اسميهم ولا أحب ان أتناولهم ، التناول المعيب ، خوف اتهامي بالجهل ، او الهجوم غير المستطاب علي . اقول هذا واني على يقين من ثقة القراء فيمـا اقول : لا طلبا للاشفاق ، او ابتغاء الهوادة في النقد ..

لكن أيكون كل فلاسفة العصر الحديث على هذه الشاكلة الجافة ، والحجارة الصلدة ... واستجهال كل من ليس على شاكلتهم ، او لا يسير على دربهم ؟ قلت هذا في نفسي ، عندما وقع في يدي كتاب « وجهة نظر » ، وهو فيطريقه الى الاستاذ رجاء النقاش ، هدية ، وان كان في غالب ظني ، سياكل اوراقه ، او يطوي صفحاته علـى اخواتها اللائي قبعن ، اهداء ، او متن اهمالا .. فقلت لحامل هـذا الكتاب ، وهو صديق اديب ، اتسمح لي بالنظر العابر لهذا الكتاب سواد هذا الليل ، على ان احمله اليك مشكورا صباح الغد ، لتؤدي الامانة ، وتقوم بما عليك من واجب .. ؟ ولم يسع الصديق ، الا ان وافقني ، محذرا اياي من قص صفحاته ، او العبث باوراقه ، خـوف شكوى المهدى اليـه ...

ولا اكتم القارىء الحق ، اذا قلت : انني رأيت في هذا الكتاب عشية تلك الليلة ما أغنيت به عن العشاء والنوم والراحة ، حتـى كان الصباح الذي وعدت فيه برد هذه الامانة التي جـاز لي ان أمـد في ميعادها يومين وثلاثة ، الى ان دفعني الفضول الى طلب الكتاب من صاحبه الذي أرسله الى صحبة هذا الصديق ، بعد ان قلت له ما حدث لي نحو هذا الكتاب ، والظروف التي اجتمعت حولي ، واجبرتني على قراءته ، بعد زهدي في هؤلاء الفلاسفة سنين وسنين ، حتى خلـت مكتبتي من أي كتاب فلسفي ، الا ما كان غائبا عني او مختفيـا وراء مجلد ضخم ، او خائفا فتسلل داخل كتاب ..

ووجهة النظر في هذا الكتاب لا تتضمن الاعتراف باحتمال ان يكون هنالك وجهات نظراخرى للنظر ، وتتضمن كذلك انالصواب ليس مكفولا لها وحدها ، اكثر مما هو مكفول لغيرها ، لكن ذلـك لا ينقص مثقال ذرة من يقين الكاتب عن نفسه بانه قد حاول الدقة في عـرض وجهة نظر ما استطاع الى الدقة من سبيل ، وبانه كـان صادقا فـي الاعراب عن نفسه ما اسعفته القدرة على استخدام اللفظ في ان ينقل الى الناس ما اراد ان ينقله .

والواقع ان الاقسام الثلاثة التي اشتمل عليها هذا الكتاب ، تعد بمثابة الفتح فـي عالم التاليف ، اذ يقص المؤلف الدكتور زكي نجيب محمود في اولها : « شيئا من تاريخنا الفكري الحديث ، ومـن تقويـم ما أنتجـه المفكرون والادباء فيه » ويعرض في ثانيهـا : « مجموعة من أهم الافكار التي تتردد فـي حياتنا الفكرية القائمة » ويمضي في ثالثها : « الى رحلة قصيرة مع نفر من الادبـاء ، نسمر معهم ونقدرهم قدرهم » .

على ان التحليل كان ألزم للمؤلف ، والشرح كان أبين قضاياه في هذا الكتاب : فلم يترك قارئه يهيم في دنيا التخمينات ، او يضرب في مختلف الاراء : فكان في القسم الاول : مؤرخا للفكر ، والقى في القسم الثاني نظرة فلسفية تحليلية ، ووقف اديبا ناقدا في القسـم الثالث المتمم للكتاب ..

عالج المؤلف في قسم الكتاب الاول اربع قضايا ، تشكل تاريخنا الفكري الحديث ، وهي المعارك الفلسفية ، وتيارات الفكر والادب فـي مصر المعاصرة ، وحركة المقاومة في الادب العربي الحديث ، ونحـن وقضايا الفكر في عصرنا .

وعالج في القسم الثاني : ارادة التغيير ، ووحدة التفكيـر ، ويمين الفكر ويساره ؟ ما معناهما ؟ ، ورجل الفكر ومشكلات الحياة ، وطرازا من الفردية جديدا ، والفرد ، والمواطن ، والانسان ، ومن هـو المثقف الثوري ؟ وضوءا على معنى الصراع الفكري ، وازمة القيم فـي عصر الانطلاق ، وباي فلسفة نسير ؟ ، وقيادات الفكر المعاصر ، وروح العصر من فلسفته ، والماركسية منهجا ..

وصحب في القسم الثالث : العقاد كما عرفه ، وفلسفة العقاد من شعره ، وامين الريحاني وفلسفته الانسانية ، ونظرة محايدة الـى قضية الشعر الحديث ، ووقفة شاعر ، والشعراء الشبان في الجيل الماضي ، وشكسبير في عصره وفي كل عصر ، والناقد قارئا لقارىء ..

وليس شك في ان كل قضية من هذه القضايا ، كان لها نصيب من المناقشة الحرة ، المتكئة على الركائز العلمية الاصيلة ، الراضية بهذه المناقشة ، الراغبة في دفع ما علاها من ركام الاراء المبتسرة التي عالجتها دون ارواء ...

ويستبين الرأي المحايد في نظرة المؤلف الى قضية الشعـر الحديث ، وتعرضه لتاريخه ومولده ، ونجاحه واخفاقه ، ونصحه الى حـد الغضب والهجوم ...

يقول الدكتور زكي نجيب محمود : « انه ليبدو لي ان الشعـراء المحدثين قد وفقوا في القبض على حقيقة الشعور الانساني اليوم بازاء الدنيا المعاصرة واحداثها وضواغطها وكوارثها ، كما وفقوا في تجسيد كثير من القيم الشعرية التي اجمع عليها البصيرون باسرار فن الشعر ، كالوحدة العضوية بكل معناها ، وكالتعبير بالصور تعبيرا غير مباشر عما يراد الايماء به مـن المعاني دون التصريـح الوعظي المباشر السخيـف ، وكتشخيص الحقائق الكونية العامة من خبرات نفسية جزئية محددة ، هي الخبرات التي تمر بتجربة الشاعر نفسه دون ملق او كذب او رياء ، وانها لصفات كانت تنقص عددا كبيرا ممن كانوا ينظمون الشعر علـى منوال التقليد ، ولكن نقطة هامة لا بد هنا من ابرازها بكل وضوح ، وهي ان في هؤلاء الشعراء المحدثين من هم صادقون في التعبير عـن تجربتهم الحية ، ومنهم المقلدون الكاذبون » .

ويناقش المؤلف ، العقاد مناقشة فلسفية معترفا له بالسبـق والاستاذية ، وبخاصة في الشعر والشاعر الذي يقول فيه العقاد مـن قصيدة طويلة :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس ، رحمن

يقول الدكتور زكي نجيب محمود : « الصورة كما يتصورها العقاد ، هي وحدة تضم الكائنات جميعا في نسق واحد ، لا لتفرق الافراد الاحاد في طوفانها ، بل لتبقى على ذواتهم المستقلة مع قيام صلات بينها ، كما تقوم الصلات بين افراد المجتمع الواحد ، ولكن من ذا يتاح له ان يرى هذه الوشائج الحميمة بين الاشياء ؟ انه الشاعر ، موحى اليه من باريه ، ليعود بدوره فيوحي بالحقيقة نفسها الى كل ذي اذن تسمع ، والصلة الرابطة بين الاعلى والاوسط والادنى هو صلة الحياة ، كانما هي صلة الرحم التي تجمع الكل في اسرة واحدة ، فالشاعر :

يجني المودة مما لا حياة له   اذا جفاه من الاحياء خوان
ويحسب النجم الحاظا تساهره   والودق يبكيه دمع منه هتان

ويسوق المؤلف تساؤلات العقاد حتى آخرها ، ثم يوضح موقفه الفلسفي ، ويتتبع شعره الى استخلاص الحقائق الاولى الفلسفية التي بنى عليها العقاد فلسفته ، وأحسها في حياته ، وأقام عليها شعره وارتكزت عليها عاطفته .

ثم يعنى المؤلف بالفلاسفة الانسانيين ، فيعقد فصلا ، يقيم فيه « امين الريحاني » ويضعه موضعه بين جماعة الانسانيين الذين يجعلون الانسان ، محورا ومدارا ، ويتعصب له فيضعه ندا لطاغور ، وصنوا لجون لوك ، وشبيها بروسو ، ويبلغ به التعصب حده الاعلى ، وذروته الشامخة ، فيجعل منه معيارا للسلوك الانساني في الرحيم الذي يستمد مبادئه من تجارب حياته ، لا يقرأ الكتب لينقل عنها ، بل يعيش ويحيا حياة مليئة خصبة ، وعيشا غنيا بالاحساس القرير بالمشاعر ...

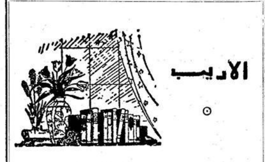
ويصحبنا الفيلسوف الناقد الى جولة مع الشعراء الشبان في الجيل الماضي : الشابي في تونس ، والتيجاني في السودان ، والهمشري في مصر ...

يقول المؤلف : انه اختار هؤلاء الشعراء الثلاثة لانهم في نظره « نماذج للاحساس الحاد الملتهب ، الذي يتاثر بما حوله ، فيتالم يائسا يائسا ، ثم يرنو ببصره الى السماء ، فيرجو الخير مستبشرا متفائلا ، ويظل هكذا بين يأسه ورجائه ، عازفا على قيثارة الشعر الحانا ، فيها مرارة الحياة الثائرة ، وكانما القيثارة من لحم ودم ، وكانما اللحن من نار ، فماذا نتوقع الا ان تحترق الالة وشيكا بلحنها : وهذا هو ما كان ... » .

ولست احب العفوية في هذا الاختيار ، هي التي صادفت المؤلف ، ليختار هؤلاء الشعراء ، بل كان اختيارهم لعدة اسباب ، لعل في مقدمتها : « انهم ظهروا جميعا في حقبة واحدة وفي سنين متقاربة ، وكذلك لانهم « يمثلون التجديد في الشعر ، ولكن لا بمعنى التخريب والتحطيم واشاعة الفوضى ، بل بالمعنى الوحيد الذي يجوز قبوله في كل فن جديد ، وهو المعنى الوحيد الذي تجرى على سننه الطبيعة في خلقها لكل جديد ... »

ولقد كانت خاتمة هذا الكتاب ، بمثابة النقطة التي انتهى اليها المؤلف في حياته ، او الدرجة التي وقف عندها ، بعد استجلاء واستخبار وخبرة .. اذ المعروف ان المؤلف الفاضل قد بدأ حياته فيلسوفا ، ثم هو ذا الان يختمها ناقدا ، ولعله بهذا الفصل الذي عقده في آخر الكتاب ، يقول لنا : « لقد اخترت هذا المذهب وآثرته ، لاخطط فيه ، بعد ما خططت ورسمت في اتجاهات اخرى ، وابواب من العلم والمعرفة » او لعل الاستاذ زكي نجيب محمود ، يرى الان اهتزاز رسالة النقاد ، وصرفها عن ما خلقت او وجدت من أجله ، فاراد بهذا توجيها ، ودرسا ، يريد : « تحليل النص نفسه تحليلا كاملا شاملا لنعرف كل ما يتصل به ، ثم يتهيا لنا بعد هذه المعرفة ان نستدل ما نستطيع استدلاله » ثم لا يكون اغفال المذاهب النقدية العديدة ، «فكلها وسائل متعاونة يقرأ بها النقاد الاعمال الادبية ، نيابة عن عامة القراء ، ليرى هؤلاء فيما يقرءونه أمادا وأبعادا ومستويات لم تكن لتخطر لهم

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ــ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

على بال ، لولا اولئك النقاد » .

ولو ذهبت اعدد نفعية هذه الدراسات التي جمعها الدكتور زكي نجيب محمود في هذا الكتاب ، لما وسعتني هذه النفعية الا ان اخرجها في كتاب ، محاكيا او مقلدا او منصفا ...

على ان النظر في هذه « الوجهة » التي اختارها المؤلف عنوانا لكتابه لتغني عن الجري وراء تلك الدراسات التي قلبت سيرتها في الف كتاب ، ولكن في هذا الكتاب ، لا يغني عنها الا مطالعتها ، وشفاء النفس والعقل من ملامستها وسط هذه الصفحات التي زادت على الاربعمائة ، ولو كان لي علم ، لحللتها موضوعا موضوعا ، وان شق هذا على جملة القراء ، الا ان فيه النفع لهم ، والخير لابناء العربية الذين سعدوا بمطالعة هذا الكتاب .

القاهرة — ابو طالبْ زيان

•

ديوان ليلى الاخيلية

عني بجمعه وتحقيقه خليل ابراهيم العطية وجليل العطية ـ ٢١٩صفحة ـ وزارة الثقافة والارشاد ، مديرية الثقافة العامة ، سلسلة كتب التراث رقم ٥ ـ دار الجمهورية ببغداد

خليل ابراهيم العطية من هؤلاء الشباب القلائل الذين نذروا انفسهم طواعية ومحبة و « هواية » للعلم واللغة والتحقيق . وكان وهو طالب بكلية التربية ببغداد يكرس للتوسع بالمعرفة وقتا يزيد على الوقت الذي يكرسه للدراسة الرسمية ، وقد هيأ له ذلك اختصاصا وتميزا ، ويكفي انه اكتشف مخطوطة نادرة لديوان المزرد بن ضرار الغطفاني ، فجد في درسها وتسنى له نشرها ـ بعد تخرجه ـ سنة ١٩٦٢. ثم سار قدما يتلقط النوادر مستهينا بالوقت والمال من أجل بلوغ هدفه الشريف .

وكان من الامور التي اعتزم تنفيذها جمع شعر ليلى الاخيلية بعد ان جار الزمان على ديوانها ويئسنا من العثور على مخطوطة له .

جد في المشروع « بالاشتراك مع شقيقه السيد جليل العطية » حتى تهيأت لهما « سبع وأربعون قصيدة ومقطوعة تحتوي على قرابة ثلثمائة بيت ... » رتباها على حروف الهجاء « للقوافي » مع ذكر مصادر التخريج وبيان البحر واثبات نتائج المقابلة وشرح الغريب والتعليقات المناسبة ..

وتفرد الشقيق الاكبر بكتابة مقدمة قيمة ذكية رصينة في حياة ليلى وشعرها وبيان ما حوته المصادر عنهما على مر القرون .

ثم قدما المجموع الى الطبع باسم « ديوان ليلى الاخيلية » وصدر بعد ان زوداه بالفهارس اللازمة بما في ذلك فهرس اللغة .

ولا شك في ان الذين سيتثقفون بهذا «الديوان» كثيرون ، ولا شك في أنه سيطبع طبعة ثانية تفوق الاولى كيفا وكما . وقد لحظت لدى تتبعي المظان انه قد فات المحققين الفاضلين النص على بيتين اوردهما الشريف المرتضى في اماليه (٢ : ١٩) هما :

مهفهف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه في كل فج ، وان لم يغز ينتظر

ويمكن ان يسجل المدققون ملاحظات اخرى في هذا الباب او في غيره ، ولكن جملة العمل لا تدل على ان فاتهما شيء ذو بال ، او انهما قصرا ـ عن قصد ـ في خطوة من الخطوات ، فلقد بذلا جهدا ووقتا ورجعا الى عشرات المخطوطات والمطبوعات المشهورة والمغمورة ، بينها ما لا يخطر ببال الخاصة فضلا عن العامة .

ان مجموع شعر ليلى يبعث على التقدير وسيكون منطلقا لاعمال اخرى يقل فيها مجال المؤاخذة وتزداد عناصر الكمال ـ والامل اكثر من وطيـد .

لقد اصبحنا نملك « ديوانا جديدا لنابغة من شواعر العرب ... وانا لديوان توبة بن الحمير لمنتظرون .

جامعة الرياض — علي جواد الطاهر

•

في الادب الصهيوني

تاليف غسان كنفاني ـ ؟ صفحة ـ سلسلة دراسات فلسطينية ـ مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ مطبعة (؟)

عنوان الكتاب صدمني ولذلك امسكت به اول ما رأيته وانتقلت عيوني من غلاف الكتاب الى مقدمته ، وما زلت اقرأ حتى انتهيت منه وانا في حاجة الى مزيد .

صدر الكتـاب في الحلقـة الثانية والعشرين من دراسات فلسطينية التي يصدرها مركز الابحاث التابع لمنظمةالتحريرالفلسطينية .

وكنت ما ازال اؤمن بشيئين اثنين : اولهما ان منظمة التحرير ليست في حاجة الى مركز ابحاث ولا الى بحث او نشر ، فذلك ما يمكن ان يقوم به الافراد والمنظمات والهيئات ودور النشر في مختلف البلاد العربية . اما منظمة التحرير فعملها الاساسي المسدس والمدفع والقنبلة والدبابة والطائرة لا الكتاب والصحيفة ومركز البحث .

وثانيهما ان ما ينبغي ان يكتب عن فلسطين يجب ان يكتب بلغات اجنبية وبالاخص منها الفرنسية والانجليزية والاسبانية والصينية اما الكتابة بالعربية فهي لا تزيد على اقناع الذات . واذا كنا ما نزال في حاجة الى اقناع الذات فسلام علينا الى يوم الدين .

ولكن الكتاب الذي بين يدي لا يتحدث عن فلسطين وانما يتحدث عن اسرائيل . فهو كتب اخرى صدرت في هذه السلسلة يعرف العرب بعدوهم . وهي نقطة ما تزال في حاجة الى مزيد لان العرب اعتادوا ان يستهينوا بالعدو نتيجة جهلهم به ، واعتادوا ان يجهلوه نتيجةاستهانتهم به ، ولذلك ظل الفكر العربي في حلقة مفرغة بالنسبة للعدو . ويظهر ان هذه النكسة الفكرية كانت سببا في النكسة العسكرية التي واجهتنا نحن العرب ثلاث مرات في العشرين سنة الاخيرة .

والكتاب الصغير الذي اقدمه للقراء يسد ثغرة من ثغرات الجهل الذي يعم الفكر العربي عـن اسرائيل ، بل عن الصهيونية العالمية التي اوجدت اسرائيل اذ يتحدث عن الادب الصهيوني في اللغتين العبريـة والانجليزية كيف نشأ ، وكيف تطور ، وكيف سخر الدين اليهـودي لخدمة القومية الصهيونية ، وكيف سخر التخلف الذي عاش فيـه اليهود طوال الفي سنة لخدمة الصهيونية ، وكيف سخر شخصيـة اليهودي التائه لخدمة الفكرة السياسية ، وكيف سخر كل ما عرف به اليهود طوال التاريخ من غدر وخيانة لمحاربة العرب ، وكيف سـخر مركب الاستعلاء الذي وجد فيهم نتيجة الشخصية المنحرفة لاحتقـار العرب والنيل من كرامتهم . وكيف سخر العنصرية التي مارستهـا ضدهم اوروبا في فترات طويلة من تاريخهم الاسود ليمارسوها ضـد العرب الذين حموهم واستضافوهم يوم كانت اوروبا تحرقهم وتشردهم وتنفيهم . وكيف سخر الاستعمار والتخلف الذي ابقى عليه الاستعمار في فلسطين ليظهر اليهود الامريكيين والاوروبيين الذين قدموا مستعمرين في شكل تفوق الجنس وتفوق الدين . وكيف سخر تآمر الاوروبيين

والامريكيين ضد العرب والبلاد العربية لاسباب استعمارية معروفة ليظهر التفوق في الشجاعة والانتصار في الحرب والتفوق في الانتاج الادبي والعلمي والفني .

انه كتاب يحمل شعار : اعرف عدوك .

ويبدأ في فصله الاول عن صراع الصهيونية في جبهة اللغة . وترتبط فكرة الدفاع عن اللغة العبرية عند الصهيونيين بفكرة مقاومة الاندماج التي حمل لواءها الصهيونيون في العصر الحاضر دعوة كما مارسها اليهود عمليا طوال التاريخ . فقد اخذ دعاة الفكر للقومية اليهودية يناهضون فكرة الاندماج حتى يظل اليهودي يهوديا بالقومية لا بالدين مهما انتسب الى قوميات واصول عرقية اخرى . وكانت العبرية احدى سبلهم لتحقيق الفكرة . فقد كانت العبرية طوال تاريخ الدين اليهودي لغة الصلاة والدين والاداب الدينية ، ولكنهم ناضلوا ليجعلوا منها لغة الحديث والكتابة حتى عند الذين لم يسمعوا بها قط كيهود امريكا واوروبا . وهكذا تضغط الصهيونية بكل ثقلها لاستنتاج معان قومية للغة لتصبح في رحلتها السياسية « مفتاح الصندوق الذي يضم اغلى الكنوز » واصبحت بالنسبة للصهيونيين « لا لغة الماضي فحسب ، بل لغة المستقبل ؟ لغة البعث ، اللغة التي تمكن اليهود من البقاء كشعب واحد » .

لا حاجة الى بيان تزييف التاريخ بالنسبة للغة العبرية كما مارسه الصهيونيون فقد تكفل الكتاب الذي نقدمه للقراء بذلك . وانما المهم ان تلاحظ انهم بدأوا من نقطة البداية : اللغة . فلا قومية بدون لغة ، ولا لغة بدون تعميقها في التعليم والادارة والادب . وهذا ما صنعه اليهود في فلسطين .

ومن فكرة القومية اللغوية انطلقت الصهيونية الادبية التي بدأت قبل الصهيونية السياسية . بدأ الادب الصهيوني الحديث معتمدا على فكرة التفوق العنصري ، بل ان فكرة التفوق استغلت الادب في خدمتها فكتب هالين في سنة ١٨٥٤ : انني ارى ان الاغريق كانوا مجرد فتية يتحلون بالوسامة بينما كان اليهود دائما رجالا ، رجالا اقوياء لا يقهرون ، وتستمر فكرة احتقار كل الشعوب لتصبح اساسا في العمل « الفني » الادبي الصهيوني الذي صدر بعد ذلك والذي يصور البولونيين جبناء والالمانيين برابرة والاتراك مرتشين واليونانيين اذلاء والعرب فرارين وخونة والانجليز متواطئين والامريكيين انتهازيين الخ .. ليبقى العنصر اليهودي : شعب الله المختار .

واتجه الادب الصهيوني الجديد لخلق شخصية جديدة هي شخصية اليهودي الجديد الذي لا ينتمي الى شخصية اليهودي كما هو في الواقع ، وكما صورته الاديان ثم الاداب والقصص والفولكلور العالمي . وليس سهلا ان تخلق شخصية جديدة من شخص عرفه التاريخ وعرفته الشعوب طوال آلاف السنين . ولذلك تضافرت جهود الادباء لتحوير التاريخ ولاستغلال العقد النفسية لتنتج الضد عن طريق التمرد ، ولتجعل من البخيل كريما ومن اللئيم طيبا ومن الجبان شجاعا ومن التائه مستقرا .ويحاول الادباء الصهيونيون ان يعطوا للاشياء معاني غير ما تعارف عليها الناس حتى يخلقوا شخصيات جديدة في عالم الادب اليهودي .

وبدأ هذا التحول في الادب الانجليزي اليهودي منذ سنة ١٨١٧ حينما صدرت رواية « هارنجتون » لماريا ادجورت ، فقدمت شخصية يهودية تختلف عن الشخصيات اليهودية التقليدية التي عرفها الادب الانجليزي فيما سبق . وهي الرواية الاولى ، في اعتبار معظم النقاد الانجليز ، التي ابرزت في الادب الانجليزي « شخصية يهودية طيبة ».

وتوالت الروايات بعدها فقدم دزرائيلي ـ الاديب السياسي اليهودي الانجليزي الذي تولى رئاسة الحكومة الانجليزية ولاول مرة في تاريخ انجلترا يتولى يهودي رئاسة الحكومة في آخر القرن الماضي ـ قدم هذا الاديب السياسي روايته « دافيد الروي » ليطرح بطله اليهودي طرحا عنصريا عنيفا . ويتبنى الفكرة العنصرية الهتلرية قبل وجود النازية بثمانين سنة فينادي بان : « كل شيء عرق وليس ثمة حقيقة اخرى » ويقدم ضد اندماج اليهود في الجنسيات التي ينتمون اليها ويعلن في روايته « انك لا تستطيع ان تهدم عرقا صافيا ، انها حقيقة سايكولوجية ، انها قانون الطبيعة البسيط » ويعلن « ان العبريين عرق غير مختلط » . ومهما تكن الفكرة السياسية التي يهدف اليها فانه لا يستطيع علميا ان يثبت ان اليهود لم يختلطوا بل ان اليهود العبرانيين لم يعد لهم الا وجود ضئيل في البلاد التي عاشت فيها جماعة منهم مستقرة ، اما في بقية انحاء العالم فقد كانوا مختلطين لان وجودهم في عزلة عن الاجناس الاخرى ـ وقد طوقوا في مختلف انحاء العالم ـ لم يكن يقبله الواقع .

وانطلقت الروايات الصهيونية تمتح من هذا النبع العنصري فكتبت جورج اليوت روايتها « دانييل ديروندا » سنة ١٨٧٦ لترسي قاعدة فعلية لليهودي الصهيوني الذي يتمثل في ابطال يؤمنون بضرورة التصميم والعمل على المساهمة في صنع مستقبل العالم ومستقبل اليهود وادراك قيمة التراث والاتجاه الى فلسطين . وبهذه الدعوة اصبحت هذه الكاتبة من ابطال الفكر الصهيونية واعتبر الصهيونيون الحاليون انها اضافت الى تكوين اليهودية الصهيونية قاعدة جديدة هي البطولية .

ويستغل الادب الصهيوني بعد ذلك قصة اليهودي التائه لتتحول في المسرحيات والروايات من شخصية خاطىء ابدي الى شخصية متهم (بكسر الهاء) ومن مستغفر الى ثائر .

وياتي بعد ذلك هرتزل الزعيم السياسي للصهيونية ليقدم ادبا صهيونيا في روايته « الارض الجديدة القديمة » وهي الرواية التي حولته من اديب الى سياسي ينشىء المنظمة الصهيونية . وروايته هي التي حولت الادب من عمل فني الى عمل دعائي . ويزعم ان ارض فلسطين التي اضاعها اليهود « كانت تستلقي في انتظار اليهود ليعودوا ويصلحوها ويسكنوها » .

ونقفز فوق « الابحاث » و « الدراسات » والروايات التي يكتبها اليهود ليزيفوا التاريخ ويسخروا الاحداث لخدمة الصهيونية الى ان نلتقي برواية كانً لها دور كبير في خدمة الصهيونية وهي رواية « اكسودس » التي كتبها الانجليزي ليون اوريس ورغم انه كتاب فظ مبتذل سخيف كما وصفه النقاد الامريكيون انفسهم الا انه « كتاب رائع بالنسبة لليهود الامريكيين » كما قال نفس النقاد . وقد اصبح اكثر الكتب انتشارا بين اليهود الامريكيين الذين يعرفونه اكثر مما يعرفون التوراة . ورغم تزييفه للحقائق التاريخية والعلمية فانه استطاع ان يسمم عقول قرائه بهجومه الشنيع على العرب وبدعوته للجنس وتمجيد اليهودي وتمسكه بفلسطين ومحاربته في سبيلها .

ويسير الادب الصهيوني الذي انشىء بعد احتلال فلسطين في نفس الخط . كل قصصه ورواياته قائمة على الافكار الاتية :

ـ ابطالها دائما منبعثون من مآسي الاضطهاد والمذابح قادمون من اوروبا الى ارض الميعاد .

ـ العرب يبرزون كافراد لا قضية لهم ، ماجورون متخلفون فكريا وحضاريا ، وحشيون لا علاقة لهم بالارض التي خربوها على مر الاجيال.

ـ تماسك اليهود في وجه الاضطهاد ، وعجز غير اليهود عن فهم اليهود .

ـ الدين والعرق دافعان قويان ـ الى جانب الاضطهاد والمذابح ـ تدفع جميعها اليهود الى القدوم الى فلسطين .

في هذا الاطار يدور هذا الكتاب « الادب اليهودي » الصغير الحجم الغني بالمعلومات والتحليلات ليكشف لنا عن عالم واسع يخوض فيه اليهود ويعززون به القضية التي يناضلون من اجلها .

وهو اتجاه لم يعد مقتصرا على الادب وحده ولكنه استغل كل

مجالات التعبير الفني من مسرح وسينما واغان ورقص وملاهي حتى استطاعوا بذلك ان يطوقوا الفكر الانساني في اوروبا وامريكا . فاذا اضيف ذلك الى عملهم في ميدان المال والاقتصاد والدعاية والصحافة والتلفزة والاذاعة عرفنا بأي سلاح يحارب هؤلاء .

ولعل هذا الاتجاه الذي يتجهه الادب الصهيوني يضع على عاتق الادباء العرب مسؤولية كبرى هي التزام الادب لخدمة القضية التي يدافع عنها العرب وتسخير الطاقات الفنية لخدمة الحقيقة والتاريخ والواقع الانساني في فلسطين ، ولكن باللغات التي يفهمها العالم وبالاسلوب الذي يتأثر بـه .

الرباط — المغرب

عبد الكريم غلاب
رئيس تحرير جريدة العلم
ونقيب الصحافة

•

حـدث ذات ليلـة

مجموعة قصص — تاليف محمود البدوي — ١٢٠ صفحة — سلسلة الكتاب الماسي — مطبوعات دار الكاتب العربي بالقاهرة

من المعروف عن الاستاذ محمود البدوي ، انه من من كبار قصاصينا الذين لا يزالون ينشطون في الكتابة ويثيرون المكتبة العربية بانتاجهم . والظاهرة الطريفة التي يتسم بها ظهور مجموعاته الاخيرة ، انها لا تخرج كثيرا عن اعادة طبع كتبه ، لا جمع قصصه الحديثة الكثيرة المتفرقة بين صفحات الجرائد والمجلات ! ولا يعني هذا بالطبع قلة جدوى اخراج هذه المجموعات ثانية — الغريب ان الاستاذ البدوي لم يتح له حتى الان دراسة ممتازة تستوعب فنه — بقدر ما يشير الى اهماله في نشر مجموعات جديدة تعرض لمزيد من النضج في قصصه !

ومن هذه المجموعات التي صدرت حديثا — ظهرت طبعتها الاولى في عام ١٩٥٣ — (حدث ذات ليلة) !

يصاحب عملية تحويل شريحة الحياة التي ينتقيها الفنان من الواقع الى قالب القصة ، حدة وصلابة في أغلب الاحيان ، للاختلاف العظيم بين الطبيعتين . والتخفيف من هذه الحدة والصلابة او تلافيهما تماما ، معناه قدرة الكاتب الممتازة على الاقتراب من روح هذا الواقع وفهمه ونقله الى القارىء ، بكل ابعاد الحياة الحقيقية التي لا تعرف الحدود الصارمة والخطوط الهندسية الباردة والتقسيمات الجدولية المصطنعة . ومحمود البدوي واحد من قصاصينا القلائل الذين امكنهم الوصول الى هذا المستوى الرفيع ، وهكذا جاءت بساطته المعروفة في اسلوب القص . ومن هنا نفهم مثلا ما يبدو على انزلاق المرأة في قصصه من عفوية وبساطة ، بدرجة مذهلة تحطم الملامح التقليدية والمشاعر العاصفة الثائرة التي تظلل في العادة هذا الحدث ! وهذا النموذج كثير التناول في مجموعات قاصنا ، ونستطيع ان نجده ايضا في « حدث ذات ليلة » في قصة « اللهب الاحمر » .

فزوجة عبد الكريم افندي معاون العزبة ، مثال للسيدة العادية .. وادعة جميلة في الثلاثين من العمر ورجلها في العقد الخامس ، روحها اميل الى المرح الطروب فتحاول الا تبتئس وحسبها الساعة التي هي فيها . باختصار تعيش حياة ست البيت الروتينية . ويجيء المهندس الزراعي الشاب الجديد ، الذي يحتل الطابق الاعلى . وتمضي الامور كالمعهد بها في رتابة ، كما يحدث في الحياة لا في القصص التي تقسر احداثها قسرا على اتخاذ اتجاه معين ! فليس مقدم شخصية جديدة بقدر يحط فجأة ومنذ الدقيقة الاولى على الشخوص الاخرى ، يشكلها من جديد عابثا بحاضرها ومستقبلها ! وهكذا لم يكن مجرد ظهور مهندسنا على المسرح ، اشارة البدء لتغيير ملامح القصة . بل تحرك الزمن خطوات غير قصار ، ربما لتختمر اشياء تحتاج الى تخمير ، ولتعطى « العادة » طعم التمهيد للاحداث المقبلة . ثم بدا الامر لا يزيد عن مجرد اعجاب عابر ضئيل هامشي من المهندس الشاب للزوجة الحسناء .. ولكن الالتقاء اليومي بين الرجل والمرأة اذاب الحواجز التي تكون عادة بين غريبين ، وانطق الرغبات التي تساور صاحبيهما واطلقها .. فعندما التقت هذه الرغبات كان لقاء حميما صديقا . يعيش لحظاته ودقائقه من وراء الوعي الملتفت ، تماما كما نقوم بعملية التنفس بلا ارادة او انتباه . هذا هو وقع الالتحام الجسدي وانطباعه . ولكن ما بعد هذا الالتحام كان مرحلة واعية بكل منعطفاتها وخاصة عند المرأة . ولذلك عندما توفي الزوج العجوز بعد مرض لم يمهله طويلا ، ظنت العاشقة ان مطالبتها اياه بالزواج هو الخطوة الطبيعية المعقولة ، كما كان طبيعيا معقولا ان تقدم اليه جسدها بلا من او تمنع عندما ادركت رغبته فيه . وعندما لم يفعل حاولت الانتحار .

هذا هو المظهر البسيط لانزلاق المرأة في قصص البدوي ، بساطة مظهر وعمق مضمون لا يعني انحلالا او تهتكا ، بقدر ما يشير الى حدوثه — اي الانزلاق ، لا الانحلال والتهتك ! — بلا عواصف او فواجع !

ومن الموضوعات التي يميل محمود البدوي ايضا الى تناولها كثيرا في قصصه .. لعب القمار . وهذا اللون من اللعب باثارته

الشديدة لنفوس اصحابه ، وبما يحفل به من ضروب الانفعال البالغة المختلفة التي تصاحب الكسب والخسارة ، ميدان خصب يجول فيه قلم القاص الفنان ويصول ، واذ يفعل كاتبنا الكبير الا ان القارىء يكتشف ان هذا ليس باعث قاصه على عرض هذا الجانب ، لانه يتجاوزه الى افاق ابعد تلتمس المآسي الانسانية التي يفرضها وجوده بكل ابعادها النفسية . واذا كانت قصة « سارق النساء » تلفت الى ان لا شيء ياخذ بلب المرأة كالرجل المقامر ، وان لعب القمار يجمع حوله دائما اجمل الفتيات اللواتي يعز لقاؤهن في غير هذا المكان ـ كازينو القمار ـ واللاتي يقعن فريسة اصحاب المغامرات . و « الزوجة العصرية » تشير الى لعب الورق كصورة لاستخفاف سنية بزوجها الضعيف . و « طبيب الموكز » تعكس اثره كمخرج لبطل القصة الذي لم يجد ازاء خواء الريف العريض ، بعد فشله في توعية الفلاحين ، الا الانغماس في الشراب والقمار . فان « في منزل المقامر » ـ هذه القصة الممتازة ـ لا تقتصر على ان يكون لعب الورق موضوعا ثانويا كما في الاعمال السابقة ، بل تخلص له كلها . وهي تحكي ماساة امينة الفتاة الحسناء التي تعيش حياة ممزقة في جانبها الشخصي وغير الشخصي على السواء ، بسبب لعب الورق . فابوها مدمن قمار كبير ، يمضي نهاره وليله بين لعب الورق والاستعداد له ، متجاهلا مسؤولياته ازاء اسرته فكانه لم يتزوج ولم ينجب . ويغري الاب الام فتندفع فيه هي الاخرى، وبين تهالك الزوجين تفقد الاسرة البقية الباقية من تماسكها ، فتتقطع الصلات بين الابناء والوالدين وكان يمكن ان تخفف حدة هذا التهالك شيئا لو ان اللعب يحدث خارج البيت ، ولكن الاب يقيم المائدة الخضراء في شقته ، فتصبح مجمعا للاصدقاء المقامرين ـ الذين تمتد السهرة بهم كل يوم الى ساعات الصباح الاولى ، فيبيت البعض في المنزل كيفما اتفق ـ وموضعا غير مهيىء لاستذكار الابنة الصغيرة التلميذة ، فتستعين ببيوت صويحباتها . واذ تسهل عملية خروجها وتكثر ، تنحرف الفتاة ولا تعود الى بيتها الا في ساعة متاخرة ، اما الاخت الكبرى المتزوجة فقد منعها الزوج من ان تطىء عتبة البيت المنحل

لم تكن هذه الاشياء جميعا الا الجانب العام من ماساة امينة ، اما الجانب الخاص فانه لم يتبلور في عدم انحرافها ومقاومتها المستميتة في هذا السبيل فحسب ، بل في عنوستها ايضا . فاي رجل يمكن ان يطمئن الى اتصال اسبابه باسباب هذه الاسرة التي اصبحت بهذا الشكل ، فيقترن باحدى بناتها ! وهكذا امتدت السنوات بأمينة الجميلة واحلامها ومستقبلها تتساقط حولها . وتجيء صحوة الاب عندما يحاول احد اصحابه الاعتداء على امينة فتقاومه وتصرخ ، ويستيقظ الجميع على قمة المأساة . اما الرجال الغرباء فقد ران عليهم صمت خجول وغادروا المنزل في الحال ومعهم المعتدي ، اما الاب فقد شده ، اذهلته الصدمة وايقظته في نفس الوقت . وفي غمار هذا الهول دخل حجرته واطلق على رأسه الرصاص .

ومن الواضح ان تعايش فناننا في « في منزل المقامر » ـ مهما اختلفت الاراء حول الخاتمة ـ كان بالغا وعميقا ورائعا بدرجة لم تتجمع كثيرا في بقية المجموعة كما فعلت في هذه القصة . ولعل من اروع ما صنعه البدوي ، ما لجأ اليه من اسلوب غير مباشر وهو يجعل القارىء يترك بصماته بوضوح على من لا يلعبه ولا يطيقه ! فامينة مثلا ، تحاول الاسترخاء قليلا في الشرفة والدنيا ليل ، ولكنها لا تستطيع لا لان صخب القمار يأتيها في مكمنها فحسب ، بل لان اباها لا يفتأ يناديها لتصنع لهم القهوة وتقاسي الانقباض الشديد وهي تدخل الغرفة التي ينعقد فيها الدخان الازرق وتتناثر فيها زجاجات الخمر وصياح المهووسين . ومن اللقطات البارعة ايضا ، ذهول الاب ازاء محاولة اعتداء صاحبه على ابنته « ونظر والدها اليها والى الرجل ولم يقل شيئا ، كان يتصور ان كل شيء يمكن ان يحدث في البيت الا هذا .. فلم يخطر له قط على بال .. ووقف شاردا مصعوقا لحظات وعيناه تحدقان فيما حوله ولكنه لا يبصر بهما شيئا .. ثم انسحب من مكانه ودخل غرفته واغلق عليه بابه » (ص ٨٨) .

وتحتوي المجموعة بجانب اعمال ممتازة مثل « ليلة رهيبة ـ اللهب الاحمر ـ طبيب المركز ـ سارق النساء ـ حدث ذات ليلة ـ بنسيون منيرفا » على عدد قليل من القصص ينبىء القارىء بوضوح ان كاتبه لا يقدم فيه احسن ما عنده . فهو مثلا يكتفي بالسطح المنعكس في تجسيد مجرد فكرة بالية قديمة عن تصاغر المرأة الفنية المتعطشة للحب لشاب فقير وسيم ، كما في « حلاق للسيدات » . واستبداد الترقية بفكر الموظف الصغير المنسي في « صالح للعمل » . وتبلد عقل الصبية العاشقة التي لا خبرة لها واستسلامها للحبيب المتشرد في « عندما تحب النساء » . وضرورة الالم لانصهار الموهبة في « المايسترو » .

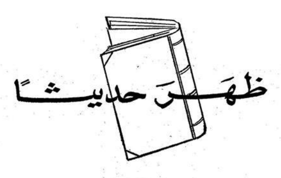
وتشمل «حدث ذات ليلة» على مستوى ثالث ، هو ما يمكن ان نطلق عليه، القصص الخفيف. الذي يتناول فيه القاص موضوعه بأسلوب لا يلمس القارىء جديته .. ربما لان المؤلف يخطف معالجته خطفا ، او لم يكن عنده ما يقوله اذ ذاك الى الدرجة التي تستوعب قصته . وان صيغ هذا كله في القالب القصصي المعهود بمحمود البدوي . كما نجد نموذجا لهذا اللون في « الزوجة العصرية » ، وفي مقدمتها التي تبدو في معظم الاحيان عند قاصنا ، كخلفية الصورة ، نعرف ان عبد الخالق افندي ـ ظاهرة « الافندية » تكثر في هذه المجموعة بصورة واضحة ، ولا عجب فقد نشرت قصصها في الصحف قبيل الثورة ! ـ قد حقق امنيته بزواجه من الانسة سنية توفيق ، ولذلك فقد عمل على اسعادها بكل ما في وسعه ، ومن نقطة الضعف هذه بسطت الزوجة سيطرتها عليه حتى اصبح لعبتها . وجاء الصيف فتركته في القاهرة وسافرت الى الاسكندرية . ويذهب اليها بعد شهر فلا يجدها في استقباله ، وانما يعثر عليها على الشاطىء تلهو بلعب القمار بصحبة شاب مغازل ، وترحب به بفتور شديد . وعندما ينتهي اللعب تتركه يحرس برنسها وبرنس صاحبها الذي نزل معها الى البحر . وفي هذه اللحظة يدرك الزوج مدى بشاعة الموقف ، فيثور على نفسه ويعود الى الشقة آخذا حقيبته الى بنسيون ، وتعجبه صاحبة البنسيون ويخون زوجته للمرة الاولى ! هذه هي القصة وهذه هي معالجة القاص الكبير للزوجة الخائنة !

وليست هذه القصة وحدها التي تثير موضوع الزوجة العصرية في المجموعة فهناك قصة اخرى هي « طبيب المركز » تناولته ايضا ولكن لم تقتصر عليه وحده كما فعلت السابقة ، بل كان احد عناصرها . فيقول بطلها الطبيب معللا موقفه من رأيه المصر على فسق حواء « تزوجت مرة واحدة وكانني تزوجت مائة مرة .. تزوجت امرأة مرغتني في الاوحال .. كانت عصرية من بيئة مثقفة وكانت تلعب القمار وتدخن وتسكر حتى تفقد وعيها وحتى لا تدري ما يراد بها » (ص ٤٨) . ومن الطريف ان هذه هي نفس سمات سنية توفيق ايضا ! .

والحوار من الاشياء التي تستاهل وقفة في « حدث ذات ليلة » . ولست ادري هل يتخذ محمود البدوي من قضية لغة الحوار موقفا محددا يلزم نفسه به ، واذا كان يتخذ مثل هذا الموقف فما هو ؟! أم انه لا يلتفت الى هذه القضية ولايعطيها اهتماما زائدا ؟ اعني انه لا يراها جديرة بالانتهاء الى حل بشانها ؟! ويخيل الي ان قاصنا كما تعكس هذه المجموعة ألصق بالفرض الثاني ! فمن الصعوبة ان يدرك القارىء موقف البدوي من لغة الحوار بوضوح ! لانه لا يكتبها بالعامية في قصة وبالفصحى في قصة اخرى فحسب ، كما يفعل الكثير من القصاص الذين لم ينتهوا بعد الى رأي اخير في هذه المشكلة الصغيرة . او يخلط الدارجة بالفصحى في قصة واحدة في المواقف المختلفة كما يحلو للبعض ان يفعل بحجة اختلاف مستوى الشخصيات الثقافي او الاجتماعي ، بل يجد القارىء هذا الخلط بين اللغة الام واللهجة المحلية في الموقف الواحد واللقطة الواحدة الصغيرة كما في قصة « اللهب الاحمر » ص ١٢ !!

المنصورة ج٠ع٠م٠

علاء الدين وحيد



ظهر حديثاً

● المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط ـ تاليف الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ـ ٢٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ مطبعة الترقي بدمشق.

● الغريب والبحر ـ مجموعة شعرية ـ مؤيد العبدالواحد ـ ١١٤ صفحة ـ منشورات دار المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الكراكي ـ مسرحية في ثلاثة فصول ـ تاليف نور الدين فارس ـ ١٠٨ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الانثربولوجيا وازمة العالم الحديث ـ تحرير رالف لنتون ـ ترجمة عبد الملك الناشف ـ ٤٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الصمت والحقيقة ـ قصة ـ تاليف ياسين حسين ـ ١٠٠ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● الاصول العربية للدراسات السودانية ـ جمع واعداد وتنسيق يوسف اسعد داغر الاختصاصي بعلم المكتبت والبيبليوغرافيا والتوثيق العلمي ـ ٢٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة النجوى بيروت .

● المختصر في الصحافة ـ تاليف احمد عاشور راكس ـ تقديم محمد الشاوش ـ ١٥٤ صفحة ـ الكتاب ٦ في سلسلة الكتاب الليبي ـ منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب بليبيا ـ مطابع وزارة الاعلام والثقافة في طرابلس بليبيا .

● الاسلام في العقيدة والنظام ـ تاليف كاظم الشيخ جواد الساعدي ـ ١٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع على نفقة الحاج محمد سليمان الذكير ـ مطبعة القضاء في النجف الاشرف بالعراق .

● اساسيات في علم الضرائب ـ تاليف علي محمود عبد المتعال ـ ٣١٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة عين شمس ـ مطابع دار الجيل بالقاهرة .

● الوطن العربي : دراسة لملامحه الجغرافية ـ تاليف الدكتور محمد سعودي ـ طبعة ثانية ـ ٧١٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار النهضة العربية ببيروت ـ مطابع قدموس ببيروت .

● الحقيقة الواضحة عن السرطان : اعراضه ، اشاراته والتشخيص المبكر ـ تاليف الدكتور موريس ستون اخصائي امراض السرطان ـ تقديم البروفسور سير برايان ونديا ـ ترجمة الدكتور فوزي بشير هنانو ـ ١١٦ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الموت .. اختيارا : دراسة نفسية اجتماعية موسعة لظاهرة قتل النفس ـ تاليف الدكتور فخري الدباغ اخصائي بالامراض النفسية والعصبية من جامعة لندن ـ ٢٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المكتبة) .

● زورق الحرية ـ مجموعة فلسفية من الشعر المنثور تتناول الانسان ـ فاطمة خليفة ـ ١٢٤ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المكتبة) .

● العصور الوسطى الاوروبية ـ تاليف الدكتور عبد القادر احمد اليوسف ـ ٣٨٦ صفحة حجم كبير ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● الارض ـ رواية ـ تاليف اميل زولا ـ ترجمة رفعت السعيد ـ ٣٧٦ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المرأة في القرآن والسنة : مركزها في الدولة والمجتمع وحياتها الزوجية المتنوعة وواجباتها وحقوقها وآدابها ـ تاليف محمد عزة دروزة ـ طبعة جديدة منقحة وموسعة لرسالة المؤلف « القرآن والمرأة » ـ ٢٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● افكار معاصرة ـ تاليف احمد بهاء الدين ـ ٣٥٨ صفحة حجم كبير ـ منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ميشال ستروغوف او الواجب المقدس ـ تاليف جول فرن ـ اقتباس ميشال ابي صعب ـ ٢٢٤ صفحة ـ منشورات دار المشرق ببيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● الدروب الخطرة ـ تاليف ج. كيروود ـ ترجمة ميشال ابي صعب ـ ١٢٤ صفحة ـ منشورات دار المشرق ببيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● في غياب زوجها ـ قصة ـ تاليف جرجس المارديني ـ ١٤٤ صفحة ـ منشورات دار المشرق بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● شجر الدفلي ـ رواية ـ تاليف اميلي نصر الله ـ الغلاف بريشة رضوان الشهال ـ ٢٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة النجوى ببيروت.

● آرا الجميل ـ ملحمة شعرية ـ لويس رزق ـ تقديم سعيد عقل ـ الغلاف والاطار بريشة يوسف فريجات ـ ٢٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● حين يجف البحر ـ مجموعة قصص ـ تاليف يوسف الحيدري ـ ١٤٨ صفحة ـ منشورات الكلمة بالنجف ـ مطبعة النعمان بالنجف العراق .

● ابو عمرو الشيباني ـ تاليف الدكتور رزوق فرج رزوق ـ ٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة المعارف ببغداد .

● الذئب في حياتنا وتراثنا ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في سورية ـ ٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ٢ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات في دير الزور ـ مطابع الف باء والاديب بدمشق .

● العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد ـ تاليف الاب هنري فليش اليسوعي ـ تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ـ ٢٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المطبعة الكاثوليكية ببيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● صفارة الانذار ـ مجموعة شعرية ـ سعد البواردي ـ ١٠٠ صفحة ـ منشورات دار الاشعاع ـ مطبعة الغريب ببيروت .

● Louis Cheikho et son livre « Le christianisme et la littérature chrétienne en Arabie avant l'Islam » — par Camille Hechaimé, S.J. Docteur en littérature Arabe - 216 pages - gd. f. - Dar El-Machreq Editeurs, Beyrouth — Imprimerie Catholique à Beyrouth.

● Poème d'Aujourd'hui ou des Delices du changement - par Georges Linze - 80 pages - Editions «Anthologie» Liège, Belgique.